أهمية الربط

بين

التفكير اللغوى عند العرب

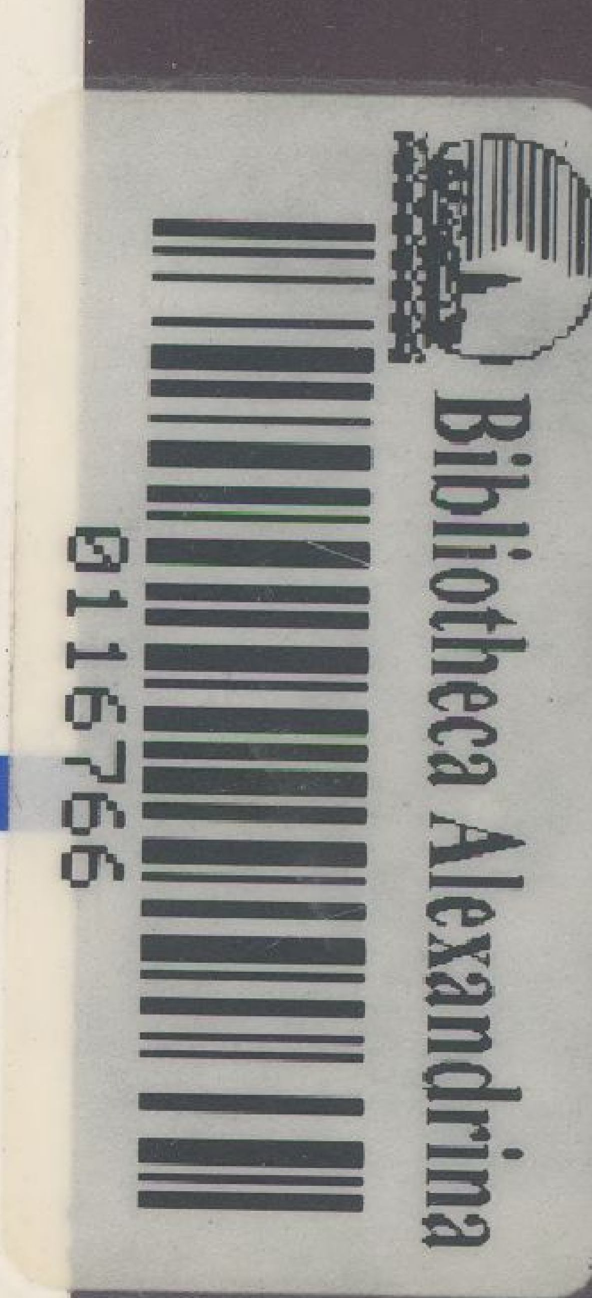
ونظريات البحث اللغوى الحديث

تأليف

الدكتور / حسام البهنساوى

جامعة القاهرة - فرع الفيوم

كلية الدراسات العربية والإسلامية



مكتبة الثقافة الدينية

أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب
ونظريات البحث اللغوي الحديث
في مجالي: مفهوم اللغة والدراسات النحوية

أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث

(في مجالي: مفهوم اللغة والدراسات النحوية)

تأليف

الدكتور حسام البهنساوي

جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم

كلية الدراسات العربية والإسلامية

القاهرة

١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الربط بين التفكير اللغوى عند العرب ونظريات البحث اللغوى الحديثة

(فى مجالى : مفهوم اللغة والدراسات النحوية)

تمهيد :

ينبغى أن ندرك أن الربط بين الفكر اللغوى عند العرب . ونظريات البحث اللغوى الحديثة، أصبح من المسائل الملحة والقضايا الهامة . التى تطرح نفسها على أذهان العلماء والباحثين ، وبخاصة بعد ظهور علم اللغة الحديث ، كعلم مستقل ، له كيانه المتميز بين بقية العلوم الأخرى .

لقد استطاع هذا العلم ؛ الذى ثبّت أركانه ، ودعّم قواعده ، أن يلج القضايا اللغوية المختلفة ، محللاً إياها ، وفق منهجية ثابتة ودقيقة . ونالت مسألة الربط بين التراث اللغوى القديم ، وقواعد البحث اللغوى الحديث ، أهمية واضحة لدى علماء اللغة المحدثين .

حقاً ، فإن فترة ليست بالقصيرة ، كانت الغلبة فيها لأنصار المهنج الوصفى البنيوى ، الذى أولى فيه العلماء جلّ اهتمامهم لدراسة اللغات الحية والمنطوقة .

استمرت هذه الغلبة مسيطرة على دراسات العلماء وبحوثهم . منذ انطلاقها على يد العالم اللغوى السويسرى الشهير ، دى سوسير "De, Sausser" ، رائد المدرسة الوصفية البنيوية الحديثة فى أوربا وفى أمريكا والشرق العربى على السواء .

وإذا كان ظهور المدرسة الوصفية البنيوية ، يُعدُّ ثورة فى عالم الدراسات اللغوية ، بما فعلته فى ساحة هذه الدراسات ، فحولت مسارها من قصرها على الدراسات الفيلولوجية للغات . فإن ظهور المدرسة التوليدية التحويلية ، فى أمريكا ، على يد العالم الللغوى :نعوم تشومسكى "N, Chomsky" ، يُعدُّ – أيضاً – ثورة لغوية كبرى فى الربع الأخير من هذا القرن العشرين ، حيث بهرت هذه الثورة اللغوية – بما قدمته من نهج جديد – العديد من العلماء فى أمريكا وأوربا والشرق العربى على السواء .

إن العودة إلى التراث اللغوى ، من أجل الوقوف على ما يتضمنه هذا التراث من آراء متطورة لهو من الأمور الهامة ، التى من شأنها أن تلقى على المواضع العديدة ، التى يلتقى فيها هذا التراث مع أحدث ما توصل إليه البحث اللغوى .

ولا يخفى علينا مدى الفائدة الكبرى ؛ التى يمكن أن نتوصل إليها من خلال هذا الربط، والذى بلاشك سيُظهر مدى استمرارية الفكر اللغوى عبر الزمان .

لقد جاء كتاب : " الألسنية الديكاريتية " (١) ليكون مثالاً حياً ، على اهتمام العلماء اللغويين المحدثين بضرورة العودة إلى التراث اللغوى ، من أجل إظهار مواضع التقارب بين بعض جوانبه المهملة ، وبين المفاهيم اللغوية الحديثة .

لقد استطاع تشومسكى"N, Chomsky" فى هذا الكتاب أن يقف على عديد من العناصر ؛ التى تمثل التقاءً واتفاقاً ؛ بين معطيات نظريته التوليدية التحويلية : وبين القواعد ، التى أرساها "ديكارت " فيما تعرف باسم " قواعد بورت رويال " .

كما نذكر من هؤلاء العلماء ؛ الذين ربطوا بين الفكر اللغوى القديم ، ونظريات البحث اللغوى الحديث والذين أرخوا له ، من منطلق اهتمامهم بهذا الجانب ، نذكر كلاً من : لوروا: (٢) " M, leroy " وليبتشى (٣) "G,C, lepschy " وكذلك : جورج مونان : (٤) " G,Mounin " وكريستيفا : (٥) "J,Kristeva" وروبنز (٦) " R,M. Robins "

وإذا كان الربط بين التراث اللغوى القديم ، والفكر اللغوى الحديث ، قد حظى باهتمام واضح لدى العلماء الغربيين ، فإن جهود علمائنا العرب فى هذا السبيل ، تُعدُّ قليلة – حقا – إذا ما قيست بجهود العلماء الغربيين !

---

(1) N.Chomsky : Cartesian linguistics, New york, 1960
(2) M, Leroy: Les grands courants de la linguistique moderne. Bruxclles , 1963, 2em, Ed, 1971
(3) G,C, Lepschy: La linguistique structurale, trad, Francais , paris payot . 1966
(4) G, Mounin : Histoire des linguistique des Origines au x x . siecle paris p.u.f, 1967
(5) J, Kristeva : le langage cet inconnu, paris, seuil 1969
(6) R,M, Robins : Ashort history of linguistics; longman 1967. Green and co lid . london and Harlow trad Francise Ed seuil 1976

إننا لا نستطيع بحال من الأحوال . أن نتهم تراثنا اللغوى العربى ، بخلوه من التحليلات والملاحظات الجديرة بأن يُعاد النظر فيها من خلال ربطها بمناهج البحث اللغوى الحديث .

وعلى العكس من ذلك تماماً ، فإن اللغويين العرب ، قد أولوا اللغة العربية ، أقصى اهتمامهم ، وقدموا بالتالى الملاحظات المتعددة والقيمة حول قضايا اللغة . وآراؤهم هذه بالإمكان اعتبارها متطورة بالنسبة إلى زمانهم ، وبالإمكان لدى العودة إلى مؤلفات القدامى، ملاحظة المجهود الهائل الذى قام به الأوائل فى مجال دراسة اللغة والعناية الدقيقة التى بذلوها فى جمع أصول اللغة ولمّ شتاتها واستنباط أحكامها العامة . بل أكثر من ذلك بالإمكان ملاحظة المفاهيم المتطورة ؛ التى أتَوْا بها والتى بالإمكان مقارنتها ببعض المفاهيم الألسنية(١)

وإذا كان اهتمام علمائنا من الباحثين والدارسين العرب ، على هذا النحو من الندرة ؛ التى لا تتناسب مع الكم الهائل من تراثنا اللغوى الذاخر ، فإن عديداً من العلماء الغربيين ، قد أولوا تراثنا العربى اهتماماً واعتباراً . وجاءت جلّ أعمالهم من العمق والتحليل والدراسة، بالقدر الذى يجعلنا نؤكد أنهم استطاعوا الإجابة عن كثير من القضايا والمشاكل اللغوية ، فى لغتنا العربية ، مكنهم من الوصول إلى هذه الإجابات ، إحاطتهم الواسعة باللغات السامية الأخرى . ومن ثم فقد جاءت دراساتهم فى الربط بين التراث اللغوى العربى القديم ، ونظريات البحث اللغوى الحديث ، جاءت هذه الدراسات على نحو من الدقة . وإذا كان بعض علماء اللغة المعاصرين ، يرى أن تراثنا اللغوى العربى ، لم يحظ باهتمام العلماء الغربيين ، وأن الربط التاريخى بين مناهج الدرس اللغوى الحديث والفكر اللغوى العربى القديم ، حالت دون تحقيقه مجموعة من العوامل ، تتمثل فى جهل علماء اللغة الغربيين باللغة العربية ، ولتراثها اللغوى مما أدى إلى عدم الاهتمام بالنتاج اللغوى وعدم الاطلاع عليه . وأن هؤلاء العلماء ، قد أهملوا فترة القرون الوسطى ، بصفة عامة ، تلك الفترة التى تمثل ازدهار الفكر اللغوى العربى ، كما أنه يذكر أن نزعة الغربيين إلى تجاهل كل ما لا ينتمى للحضارة الغربية بصورة وثيقة . وأن "روبنز " Robins لم يخصص فى كتابه " Ashort history of linguistics " سوى صفحتين

(١) الملكة اللسانية فى مقدمة ابن خلدون ٧

فقط لاستعراض الفكر اللغوى العربى ، وأن كريستافا J.Kristeva لم تخصص سوى خمس صفحات للفكر اللغوى العربى حصرتها فى بيان أهمية هذا الفكر فى العصور الوسطى

حقاً ، فإن إهمال العلماء الغربيين لفعالية التراث اللغوى العربي – بعامة – من خلال ربطه بالمناهج اللغوية الحديثة ، أمر واضح ! بيد أن ذلك ، لا ينبغى أن يدفعنا إلى القول بعدم اهتمام هؤلاء العلماء الغربيين بتراثنا اللغوى العربى . فإن اعتراف هؤلاء العلماء الغربيين بتفوق الدراسات الصوتية عند العرب . وأنه لم تسبقهم أمة من الأمم فى هذا الشأن سوى الهنود ، واعترافهم بجهود العلماء العرب ، وتصنيفاتهم الجبارة فى مجال الدراسات المعجمية، وأنه لم يسبقهم فى هذه الدراسات سوى الصينيين . لدليل أكيد على فعالية هذا التراث ومنهجيته .

فهذا هو العالم اللغوى المستشرق : " برجشتراسر " يقول عن تفوق العلماء العرب فى مجال الدراسات الصوتية أنه : " لم يسبق الأوربيين فى هذا العلم إلا قومان : العرب والهنود" ويقول اللغوى الإنجليزى : " فيرث " : " لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت فى أحضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية ؛ ويذكر د. تمام حسان أن العلماء العرب ، قد أجادوا فى دراسة مستوى الصرف إجادة ماتزال تستحوذ إعجاب اللغويين فى مختلف العالم : حيث يقول : " وهذه الشعبة من دراسة اللغة ، وإجادة القول فيها . أفردت الصرفيين العرب بمكان لا يدانيه أى مكان آخر فى عالم اللغويين قديماً وحديثاً ، ولا يزال كشفهم عن النظام الصرفى موضع الإعجاب والاحترام : وسيظل دائماً كذلك فى نظر اللغويين فى مختلف أنحاء العالم"(١)

كما إن إشارة " روبنز " إلى أهمية الفكر اللغوى العربى ، إشارة جديرة بالاعتبار حيث يؤكد أن أى باحث ، لا يستطيع أن ينكر ما قدمه العرب من دراسات قيمة للغتهم ، بل أنهم أثروا على الأعمال اللغوية والتفكير النحوى عند اليهود فى دراساتهم عن العبرية ، وذلك بعد اختلاطهم بالعرب بعد انتشار الإسلام وبعد بداية التأليف العلمى العربى . (٢)

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٥

(2) Robins : Jdeen und prolemge schiehte, S.7

علم اللغة ، نشأته وتطوره ٣٧

لقد جعل النحاة اليهود النموذج النحوى للغة العربية أساساً لوضع قواعدهم العبرية ، وأنهم جعلوا النماذج العربية المتنوعة فى التأليف المعجمى ، أساساً ونموذجاً يحتذى فى وضع المعاجم العبرية ! ويعد سعديا الفيومى (ت ٩٤٢ م) المولود فى مصر من أشهر علماء اليهود الذين اعتمدوا على الدراسات العربية ، فقد ألف معجماً سماه : أجرون " Agron " كما جمع رسائل نحوية بلغت نحو اثنتى عشرة رسالة بعنوان : " كتب فى اللغات " كما أنه ناقش الأصوات الحلقية فى سياقاتها المختلفة فى مؤلفه : " كتاب الخليقة " كما أن عالماً لغوياً يهودياً آخر ، هو " يهودا بن جيوج " قد تأثر هو الآخر بالنحو العربى ، وله فى ذلك دراسات قيمة فى اللغة العبرية ، تتجلى فيها هذا التأثر [١]

والحق أننا لا نعدم عدداً من العلماء اللغويين الغربيين ، الذين درسوا الفكر اللغوى العربى ، بل إنهم ألفوا لذلك أعمالاً ، خصصوها لذلك ، فهذا هو برجشتراسر ، يؤلف كتاباً بعنوان : " التطور النحوى " [٢] وذاك هو اللغوى يوهان فك " يؤلف كتاباً بعنوان : " العربية"[٣] كما أن " رابين " يؤلف كتاباً بعنوان " لهجات غربى شبه الجزيرة العربية القديمة. [٤] وغيرها من المؤلفات العديدة ؛ التى قام بدراستها وتحقيقها وإلقاء الضوء على محتوياتها النفيسة للفكر اللغوى العربى ، عديد من العلماء اللغويين الغربيين !

إن افتقار المجتمع العربى إلى التخصص اللغوى ، أمر يرتدى أهمية خاصة ، فهو يؤكد أن إنقاذ ما يشكل قيماً لغوية علمية من الإهمال ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال إعمال البحث

---

(١) انظر : البحث اللغوى عند العرب ٥٠– ٥٧

(٢) التطور النحوى للغة العربيـــة . للمستشرق برجشتراسر – أخرجه وصححه وعلق عليه د/ رمضان عبدالتواب – القاهرة ١٩٨٢م

(٣) العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك – ترجمة د/رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٠م

(٤) قام الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن أيوب بترجمة هذا الكتاب تحت عنوان : " اللهجات العربية الغربية القديمة " الكويت ١٩٨٦ م

العلمى الرصين فى مجال التراث اللغوى من منطلق لغوى حديث [1]

ولعلنا فى هذا الإطار من الربط بين تراثنا اللغوى ومناهج البحث اللغوى الحديث ، لا نعدم من الباحثين العرب من يولى اهتمامه فى هذا الاتجاه ، على الرغم من ندرتهم ،. حيث نجد الدكتور / تمام حسان ، يقدم بحثاً بعنوان : تعليم النحو بين النظرية والتطبيق فى مجلة المناهل بالمغرب فى العدد ٧ لسنة ١٩٦٧ م ص ١١٢ وما بعدها . كما أنه قدم بحثاً آخر بعنوان : " إعادة وصف اللغة العربية ألسنياً " فى ندوة اللسانيات واللغة العربية بتونس ١٩٧٨م . كما قدم الدكتور / محمود عبد السلام شرف الدين بحثاً بعنوان : " التركيب ومدى عناية اللغويين العرب بدراسته فى مجلة اللسان العدد ١٣ لسنة ١٩٧٦ م ص ١٠٨ وما بعدها . ولسنا نعدم فى هذا السبيل بعض المؤلفات ، نذكر منها كتاب : النحو العربى والدرس الحديث، بحث فى المنهج . للدكتور / عبده الراجحى بيروت ١٩٧٩ م وكتاب : نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث للدكتور / نهاد الموسى بيروت ١٩٨٠ م كما أن كتاب : الأصول ، دراسة ايبستمولوجية للفكر اللغوى عند العرب ، للدكتور / تمام حسان ١٩٨٢ م يعد إسهاماً فى هذا السبيل . وكذا كتاب قواعد تحويلية للغة العربية ، للدكتور / محمد على الخولى الرياض ١٩٨١ م وكتاب : العربية وعلم اللغة البنيوى للدكتور / حلمى خليل، وكتاب : الألسنة التحويلية وقواعد اللغة العربية ، بيروت ١٩٨٢ م وكتاب : الملكة اللسانية فى مقدمة ابن خلدون بيروت ١٩٩٢ م وكتاب : بحوث ألسنية عربية ، بيروت١٩٩٢ وجميعها للدكتور / ميشال زكريا ، تعد - أيضاً - إسهاماً فى هذا السبيل .

هذه المؤلفات وغيرها تعد إسهاماً جليلاً فى إلقاء الضوء على مدى التقاء الفكر اللغوى العربى القديم أو اختلافه مع مناهج البحث اللغوى الحديث .

إن مثل هذا العمل يعد مطلباً ملحاً ، وأمراً ينبغى أن تتبناه المؤسسات العلمية والمجامع اللغوية والهيئات المتعددة المعنية بدراسة تراثنا العربى .

فالجهود التى ذكرناها ، قد توصل العديد من أصحابها إلى نتائج جد مهمة ، حيث أثبتت بعض هذه الدراسات أن الفكر اللغوى العربى ، له فضل السبق فى كثير من القضايا

والمباحث اللغوية ، التى توصلت إليها مناهج البحث اللغوى الحديث - سواء أكانت هذه المناهج، الوصفية البنيوية ، التى تربعت على عرش الدراسات اللغوية الحديثة ، زمناً ليس بالقصير ، منذ أن أصل معطياته اللغوى السويسرى ، دى سوسير فى أوائل القرن العشرين، أم كانت هذه المناهج ، التوليدية التحويلية ، أحدث المناهج اللغوية الحديثة وأدقها والذى نال من الشهرة والذيوع والاهتمام قدراً كبيراً ، فى الربع الأخير من القرن العشرين.

ويهتم هذا البحث بالربط بين التفكير اللغوى عند العرب ، وبين المناهج اللغوية الحديثة وبخاصة فى مجالين اثنين .

المجال الأول : ويتمثل فى مفهوم اللغة عند العلماء العرب .

المجال الثانى : ويتمثل فى الجهود النحوية عند العلماء العرب .

المبحث الأول :

مفهوم اللغة عند العلماء العرب :

لقد أهتم بعض العلماء العرب بتعريف اللغة وتوضيح ماهيتها ، فقاموا بوضع تعريفات جديرة بمناقشتها وبيان مدى فعاليتها وعمقها ، والحق أن نظرة متفحصة فى هذه التعريفات تؤكد لنا باليقين العلمى أن هذه التعريفات - على قدمها - تقف على قدم المساواة ، وإن لم تسبق فى بعض النقاط - مع أحدث التعريفات اللغوية لمفهوم اللغة . وإن استعراضاً لتعريفات العرب لمفهوم اللغة ، من شأنه أن يؤكد هذه المقولة .

- لقد قدَّم لنا اللغوى الألمعى " ابن جنى " تعريفا للغة فى باب القول على اللغة وما هى، يقول فيه : " أما حدُّها ، فإنها أصوات يُعبرّ بها كل قوم عن أُغراضهم . وهذا حدُّها ، وأما اختلافها فلما سنذكره فى باب القول عليها : أمواضعة هى أم إلهام " [1]

فحدُّ اللغة عند ابن جنى عبارة عن أمور ثلاثة وهى :[2]

---

(١) الخصائص ١ /٣٣.

(٢) انظر : بحوث ألسنية عربية ٦٠

١ – اللغة عبارة عن أصوات .   ٢ـ اللغة وسيلة التعبير عن أغراض الأقوام .

٣– تنوع اللغات وتعددها بحسب أقوامها ومتكلمها .

قدَّم ابن جنى إلى جانب هذه التعريف مجموعة أخرى من التعريفات ، حول أصل اللغة ومفهومهما ، وقد خصص لذلك بابًا سمّاه : باب القول على أصل اللغة أإلهام هى أم اصطلاح" [١] استعرض فيه قول القائلين بأنها إلهام ، ذاكراً أن شيخه أبا على رحمه الله قال: إنها من عند الله ، وأنه احتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٢/ ٣١) [٢] . كما استعرض رأى القائلين بأن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة . " وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء بالمعلومات ، فيضعوا لكل واحد منهما سمة ولفظاً ، وإذا ذكر عُرف به مسماه ، ليمتاز من غيره وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ... " [٣] كما استعرض – أيضا – قول بعضهم: " أن أصل اللغات كلها ، إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل ." [٤] ثم يقول بعد ذلك كله : " إننى على تقادم الوقت ، والتنقير عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى ، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة مايملك علّى جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فمن ذلك مانبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة . ماوُفِّقوا لتقديمه منه . ولطف ماأُسعدوا به ، وفُرِق لهم عنه ، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جلَّ وعزَّ ، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه وأنها وحى" [٥]

---

(١) الخصائص ١ /٤٠

(٢) الخصائص ١ /٤٠ –٤٤

(٣) الخصائص ١ /٤٤ – ٤٦

(٤) الخصائص ١ /٤٦ – ٤٧

(٥) الخصائص ١ /٤٧

كما يعرفها ابن سنان الخفاجى بقوله : " اللغة هى ما يتواضع القوم عليه من الكلام"[1] وقد شرح ذلك ابن جنى ، فيما سبق عرضه عن رأى القائلين بالاصطلاح فى أصل اللغة ، ويهمنا أن نذكر أمرين صدد التعريف وهما :

١- اللغة من وجهة نظر هؤلاء اصطلاح واتفاق بين متكلميها .

٢ - اختلاف الاصطلاح والاتفاق باختلاف الأقوام .

كما يعرفها ابن الحاجب بقوله : " حدُّ اللغة ، كل لفظ وضع لمعنى "[2] ويتفق معه الأسنوى فى تعريفه بقوله : " اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعانى "[3] ويتفق معهما - كذلك - الكيا الهرَّاسى فى تعريفه اللغة فى قوله : " فوضعوا الكلام دلالة ، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولاً للترداد "[4] بيد أن الكيا الهرَّاسى يفصِّل لنا رأيه قائلاً: " وهذا الكلام ، إنما هو حرف وصوت ، فإن تركه سدى غفلاً امتدَّ وطال ، وإن قطعه تقطَّع، فقطعُوه وجزءوه على حركات أعضاء الإنسان ، التي يخرج منها الصوت ، وهو من أقصى الرئة إلى منتهى الفم ؛ فوجدوه تسعة وعشرين حرفاً لا تزيد على ذلك ، ثم قسموها على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لا تقع بهذه الحروف ؛ التى هى تسعة وعشرون حرفاً ، ولا يحصل له المقصود بإفرادها فركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثياً ورباعياً وخماسياً ، هذا هو الأصل في التركيب ، وما زاد على ذلك يُستثقل فلم يضعوا كلمة أصلية زائدة على خمسة أحرف الا بطريق الإلحاق والزيادة لحاجة ، وكان الأصل أن يكون بإزاء كل معنى عبارة تدل عليه ، غير أنه لا يمكن ذلك لأن هذه الكلمات متناهية ، وكيف لا تكون متناهية مواردها ومصادرها متناهية ؟ [5] فدعت الحاجة إلى وضع الأسماء المشتركة فجعلوا عبارة

---

(١) سر الفصاحة ١ /٣٣

(٢) المزهر ١ /٨

(٣) المزهر ١ /٨

(٤) المزهر ١ /٣٦

(٥) يتفق هذا القول فى جزئه الأول ؛ القائل بأن موارد اللغة ومصادرها متناهية ، يتفق مع الرأى الذى ذكره همبولت وأقره عليه تشومسكى ، من محدودية وسائل اللغة ، فى حين يختلف فى جـزئه =

واحدة لمسميات عدة ... ثم وضعوا بإزاء هذا على نقيضه كلمات لمعنى واحد والطباع مجبولة على معاداة المعُادات ، فخالفوا بين الألفاظ والمعنى الواحد [1]

والحق أن التعريفات الثلاث السابقة لكل من ابن الحاجب والأسنوى والكيا الهرأسى تركز على أمور خمسة وهى :

١- اللغة عندهم جميعاً عبارة عن مواضعة واصطلاح .

٢- اللغة عند كل من ابن الحاجب والأسنوى ، وضعت للدلالة على المعانى .

٣- اللغة عبارة عن أصوات يرددها اللسان ، كما ينفرد بذلك الكيا الهرّاسى .

٤- أصوات اللغة محدودة متناهية .

٥ - مفردات اللغة وكلماتها محدودة هى الأخرى ومتناهية .

ويعرفها ابن خلدون فى مقدمته بقوله : " اعلم أن اللغة فى المتعارف عليه ، هى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ناشئ عن القصد بإفادة الكلام ،

= الثانى : القائل بأن الكلمات متناهية ! عن رأى همبولدت السابق . الذى ذكره تشومسكى قائلاً بأن: " اللغة تستخدم بشكل محدود ، وأن قواعد اللغة ، يجب أن تصف العمليات التى تجعل هذا ممكناً " مظاهر النظرية النحوية ٢٥ ويقول أيضا : " من الآن فصاعداً ، تعتبر اللغة كناية عن مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل ، كل جملة منها طولها محدود ، ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر ، وكل اللغات الطبيعية فى شكلها المكتوب والمنطوق تتوافق مع هذا التعريف ، وذلك لأن كل لغة طبيعية تحتوى على عدد متناهٍ من الفونيمات ، وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع من الفونيمات علماً بأن عدد الجمل غير متناهٍ " Syntactic'structure, p15 , 1957, the hague Mouton trad francaise Ed seuil, 1969"

ولعلنا نلمس بوضوح من خلال هذا النص ، رؤية بنيوية ، جديرة بالاعتبار ، عندما يحدثنا الكيا الهرأسى عن الأصوات التى تخرج من أقصى الرئة إلى منتهى الفم : وأنه لا يحدث بإفرادها المقصود، فركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسياً ، وقوله : هذا هو الأصل فى التركيب " انظر المزهر ١ / ٣٦- ٣٧

(١) المزهر ١ / ٣٦ - ٣٧

فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها "[1] ثم يؤكد ابن خلدون أن اللغة ، إنما هي وسيلة التعبير الإنساني بعامة ، حيث يقول : " كل منهم - أهل المغرب والأندلس والمشرق - متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده ، والإبانة عما في نفسه ، وهذا هو معنى اللسان واللغة " [2] كما يذكر ابن خلدون أن " المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ويدل عليه دلالة دقيقة " [3]

وليس من شك في أن تعريف ابن خلدون السابق لمفهوم اللغة ، يُعدُّ تعريفاً دقيقاً ، يتفق في كثير من جوانبه ، مع أحدث ما توصلت إليه قرائح علماء اللغة الغربيين المعاصرين ، على الرغم من التباعد الزمني فيما بينه وبينهم ، ولعل عرضاً لما يتضمنه تعريف ابن خلدون من جوانب مختلفة حول ماهية اللغة ، يوضح ذلك .

يتضمن تعريف ابن خلدون للغة ، مجموعة الجوانب والمسائل الآتية :[4]

١ - اللغة : هي عبارة المتكلم عن مقصوده .

ومعنى ذلك أن اللغة عند ابن خلدون ، تعد وسيلة يمتلكها المتكلم ، ويعبر بواسطتها عن أفكاره ومتطلباته فهي الوسيلة التي تميز الإنسان عن غيره من سائر الكائنات الأخرى .

٢ - اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتها.

ولعلنا ندرك هنا أن ابن خلدون يحدد اللغة الإنسانية في صورتها الكلية : باعتبارها ملكة تخص الإنسان وحده ، وأن هذه الملكة تظهر عند كل أمة في شكل لغة خاصة بهذه الأمة .

وليس من شك في أن الطابع الاصطلاحي للغة : الذي يقول به ابن خلدون : ومعظم العلماء العرب السالف ذكرهم ، يعد من الأمور التي تشير إليها النظريات الحديثة ، فاللغة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٢٦٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٢٨٤

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٣١٨

(٤) انظر : الملكة اللسانية ١١

وسيلة تعبير قائمة فى بيئة معينة ، على عادة جماعية ، أو بتعبير آخر ، على اصطلاح معين... إن الطبيعة فى اللغة هى بالذات التى تنتج لمتكلميها التواصل عبر قناة تواصلية ثابتة بثبات الاصطلاح على الدلالات ؛ التى تعبرعنها الألفاظ فى اللغة الواحدة [١] " فالدلالة هى بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتُهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك . " [٢]

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن اللغة من هذه الزاوية ليست نتيجة قرار سياسى أو ثقافى ، التزمت به مجموعة أفراد فى بيئة معينة ، بل هى كيان طبيعى وليست بالتالى من وضع إناس معينين معروفين أم غير معروفين ، بل هى تستمد من عصور سابقة " [٣] وهذا ما يصرح به ابن خلدون بقوله : " واعلم أن النقل الذى تثبت به اللغة ، إنما هو النقل عن العرب ، أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعانى ، لا نقل أنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد ، ولم يعرف لأحد منهم " [٤]

٣- دور تلك العبارة فعل لسانى ناشئ عن القصد بإفادة الكلام .

حيث يقرر ابن خلدون كون اللغة فعلاً إنشائياً يقوم الإنسان بتأديته عبر اللسان ، وهذا الفعل نابع عن إرادة فكرية ، وهى القصد بإفادة الكلام . فاللغة الإنسانية ، نشاط إنسانى مصدره الفكر الإنسانى . وهى تصميم ذاتى ، فالإنسان يستعمل اللغة للتعبير عن مواقفه من الظروف المحيطه به ، فهى بالتالى ، عمل عقلى ؛ وفعل صُنِع ، يقوم به كل فرد بقدر ما

---

(١) الملكة اللسانية ١٢ غير أن بعض العلماء يرفضون القول باصطلاحية اللغة ، وأن ما يقرره هؤلاء يتعارض مع النواميس العامة ؛ التى تسير عليها النظم الاجتماعية ، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ، ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها ، هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون . انظر : علم اللغة ٩٨ - ٩٩

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٣٢٦

(٣) الملكة اللسانية ١٣

(٤) مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٢٧٢

يقصد استعمالها .[١]

٤ - فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان.

فابن خلدون يقرر أن اللغة قائمة عند الإنسان ، لأنه امتلك هذه الملكة اللسانية ، حيث إن مقدرة الإنسان على التكلم وراءها ملكة لسانية ؛ اكتسبها الإنسان ، وهي التي توجه عملية التكلم .

بعد ما انتهينا من استعراض مفهوم اللغة باعتبارها ملكة لسانية ، عند ابن خلدون ، وما يتضمنه هذا التعريف من وجوه وجوانب أربعة ، يجدر بنا أن نقدم للتعريفات المختلفة لمفهوم اللغة عند العلماء المحدثين الغربيين ، لنعرف إلى أي مدى كان ابن خلدون والعلماء العرب ، موفقين في الإحاطة بمفهوم اللغة وبجوانبها المختلفة التي تشتمل عليها .

تعريفات اللغة عند العلماء الغربيين المحدثين :

أ - أندريه مارتينيه : A, Martine

يقول مارتينيه : " إن اللغة ، أداة تواصل ، تحلّل وفقها خبرة الإنسان بصورة مختلفة في كل مجتمع إنساني عبر وحدات ؛ تشتمل على محتوى دلالي ، وعلى عبارة صوتية " [٢]

يتضمن تعريف مارتينيه السابق على الجوانب الآتية :

١ - تعد اللغة وسيلة أساسية للتواصل بين متكلميها .

٢ - تقوم اللغة على أساس الوحدات الصوتية ، التي تشتمل بدورها على دلالات معينة

٣ - تختلف اللغات في المجتمعات الإنسانية من مجتمع إلى آخر .

ويبدو واضحاً أن مارتينيه ، يركز على وظيفة هامة في اللغة ؛ ألا وهي وظيفة التواصل بين متكلميها . حيث يقول :- إن الإشارة إلى اللغة كوسيلة أو كأداة للتواصل ، تلفت الانتباه إلى ما يميز اللغة عن مؤسسات أخرى . إن وظيفة هذه الأداة (اللغة) الأساسية ، هي وظيفة

(١) انظر : الملكة اللسانية ١٣

(2) A, Martine: Elements de linguistique generale, paris: Armand collin , p20, 1960

التواصل .[1]

ب – أنطوان ماييه : A, Meillet

يقول ماييه : " إن اللغة تنظيم متماسك مرتبط بوسائل التعبير المشتركة بين مجموعة متكلمين . ولا وجود لهذا التنظيم خارج الأفراد ؛ الذين يتكلمون اللغة (أو يكتبونها) مع ذلك فليس هذا التنظيم المستقل عن كل منهم ، ذلك لأنه يفرض نفسه عليهم ، واقعه هو واقع مؤسسة اجتماعية متأصلة فى الأفراد ، ولكن فى الوقت نفسه مستقلة عن كل منهم ، وهذا ما يتوافق بالذات مع التعريف الذى وضعه دور كايم فيما يتعلق بالأمر الاجتماعى ." [2]

ج – إدوارد سابير : " E, Saper "

ويعرفها بقوله : إن اللغة وسيلة لا غريزية خاصة بالانسان ، يستعملها لاتصال الأفكار والمشاعر والرغبات عبر رموز يؤديها بصورة اختيارية وقصدية " [3]

د – بلوخ وترايجر : " Bloch and Tiriger "

ويعرفاها بقولهما : " إن اللغة تنظيم رموز صوتية كيفية يتعاون بواسطتها أفراد مجتمع معين ." [4]

---

(1)A, Martine : Elements de linguistique génerale, p20
(2) A. Meillete : linguistique historique khinesreck , vol 111 , p.p 72- 73, 1952
(3) E. Sapir : language, New york , p,8,1921

وضع هذا التعريف بين أيدينا الحقائق التالية عن اللغة :

أ – اللغة نشاط إنسانى مكتسب وليس غريزيا .

ب – اللغة وسيلة الاتصال الإنسانى .

ج – اللغة نظام .

د – اللغة رموز .

هـ – اللغة اصطلاح .

و – اللغة أصوات إنسانية

انظر : اللسان والإنسان حيث التعليقات التى قدمها د . حسن ظاظا حول هذا التعريف ٢٨ وما بعدها .

(4) Bloch and Triger: out line of linguisties Analysis Baltimore linguishics society of America.

وينبغى أن نذكر التعريف السابق تتضمن مسألتين هامتين ، فى إطار الاتجاه البنيوى لدراسة اللغة [1]

١ - **اللغة تنظيم** أى أن اللغة تتكون من كل منظم من العناصر ؛ التى تعمل كمجموعة، ولا يكون لعناصر التنظيم ، إذا أخذت على حدة أية دلالة بحد ذاتها . بل تقوم دلالتها فقط عندما ترتبط ببعضها وبالتنظيم ككل .

٢ - **الرموز طبيعتها كيفية** . أى إنها غير معللة . فالرمز يرتكز على اصطلاح جماعى كلى يشير إلى ما يرمز إليه ، فهو لا يخضع بالتالى لأى قياس عقلى ، بل إن الرابط الذى يجمع بين أفراد الرمز وما يرمز إليه هو رابط كيفى .

هـ - دى سوسير : " De, sousser "

ويرى دى سوسير أن اللغة عبارة عن تنظيم محدد جيداً فى كتلة من العناصر المتغايرة لحقائق الكلام ، وأنه يمكن وصفها فى جزء محدد من الدائرة الكلامية عندما تجتمع الصورة السمعية مع الفكرة . فاللغة عنده عبارة عن نظام من العلاقات التى توحد المعانى والصور الصوتية فيها الشئ الأساسى والوحيد . ويكون فيها قسما العلامة نفسيين .[2]

لقد حذا على نهج دى سوسير عديد من العلماء فى تعريف اللغة ، نذكر منهم :

١ - هال" R.A. Halle "

يرى هال أن اللغة " هى المؤسسة التى يتواصل بواسطتها البشر ويتفاعلون فيما بينهم بواسطة رموز شفهية سمعية ، ذات كيفية مستعملة بالعادة .[3]

فاللغة من وجهة نظر هال " Hall " تعد وسيلة تواصل قائمة على رموز كيفية ، وهذه الرموز تنتقل من المتكلم إلى السامع ، فهى شفهية عند المتكلم ، وسمعية عند السامع .. إلا

---

(١) الملكة اللسانية ١٦

(٢) محاضرات فى علم اللغة العام ٣٨ - ٣٩

(3) R.A.Halle. An Essey of language. philadelphia and New york chilton books, p 158, 1968

أننا نلاحظ أن " هال " يضيف إلى تعريفه مسألة أن اللغة عادة ، والنظر إلى اللغة من حيث إنها عادة إنسانية نظرة تبناها علماء اللغة البنيويون وخصوصا الأمريكيون ، بتأثير من النظرة السلوكية فى علم النفس [١]

ومن هؤلاء العلماء : اللغوى الأمريكى الشهير : بلومفيلد " L, Bloomfield " الذى يقول بأن : " الكلام (الأصوات) الخاص ؛ الذى يتلفظ به الإنسان من خلال سيطرة مثير معين ، يختلف باختلاف المجموعات البشرية . فالبشر يتكلمون لغات متعددة ... كل طفل يترعرع فى مجموعة معينة يكتسب هذه العادات الكلامية والاستجابات فى سنى حياته الأولى[٢]

أما نعوم تشومسكى "N,Chomsky" فإنه يرفض تلك النظرة الآلية إلى اللغة ، من حيث كونها عادة كلامية قائمة من خلال المثيرات والاستجابات ، ويؤكد تشومسكى فى هذا الصدد أن الطفل يكتسب لغة البيئة التى يترعرع فيها بالاستناد إلى مقدرته الفطرية على اكتساب اللغة . تلك المقدرة التى يطلق عليها مصطلح : " الكفاءة اللغوية " أو " القدرة الإبداعية " حيث يقول : " يشير مصطلح الكفاءة اللغوية إلى قدرة المتكلم – المستمع المثالى – على أن يجمع بين الأصوات اللغوية وبين المعانى فى تناسق وثيق مع قواعد لغته " [٣]

ويقول – أيضا – : " إن كل من يملك لغة معينة ، قد اكتسب فى ذاته وبصورة ما تنظيم قواعد تحدد الشكل الصوتى للجملة ومحتواها الدلالى الخاص – فهذا الإنسان قد طوّر فى ذاته ما نسميه بالكفاءة اللغوية [٤]

ويحدد تشومسكى مفهوم اللغة فى ضوء ما أسلف من توضيح وتبيان بقوله : " من الآن فصاعداً تعتبر اللغة كناية عن مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل ، كل جملـــــة

---

(١) انظر : الملكة اللسانية ١٧

(2) L. Bloomfield : Languane , london, Allen unurin, p29 1935

(3) N, chomsky : The formal Nature of language appendix , p,126,1967 to E.H lonneberg biological fondations of language trad francais , de , N,Chomsky, 1966

(4) N, Chomsky : The formal Nature of language Appendix p, 125, 1967

يؤكد تشومسكى أن اللغة ملكة فطرية ، وهى وحدة من وحدات العقل / الدماغ ، تنتج معرفة باللغة على أساس من التجربة الماثلة ، إذ إنه ليس بقضية خلافية ، أن البشر يحصلون معرفة بالإنجليزية أو اليابانية أو غيرها من اللغات ، على حين أن الصخور أو الطيور ، لا تفعل الشئ نفسه تحت الظروف نفسها . المعرفة اللغوية ٥٥ غير أنه يذكر أيضاً أن "اكتساب اللغة مسألة إضافية إلى مخزون القواعد عند المرء ، أو تعديل هذا النظام ، حين تعالج مادة جديدة : المعرفة اللغوية ٨٤ .

منها طولها محدود ، ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر ، وكل اللغات الطبيعية فى شكلها المكتوب والمنطوق تتوافق مع هذا التعريف . وذلك لأن كل لغة طبيعية تحتوى على عدد متناهٍ من الفونيمات ، وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع من الفونيمات ، علماً بأن عدد الجمل غير متناهٍ " (١)

ومن الواضح أن تشومسكى يركز فى تعريفه للغة على خصائصها الشكلية : تلك الخصائص التى يمكن دراستها دراسة علمية ، فهو لا يحلل اللغة من زاوية كونها وسيلة اتصال أو تعبير ؛ بل يحللها من زاوية كونها " مجموعة جمل تحتوى على شكل صوتى ، وعلى تفسير دلالى يقترن بهذا الشكل وقواعد اللغة هى التنظيم الذى يوضح هذا التوافق بين الصوت والدلالة ."(٢)

تقوم نظرية تشومسكى إذن على فكرة الكفاءة اللغوية لدى متكلم اللغة ، حيث إن متكلم اللغة ، حيث إن متكلم اللغة الذى يترعرع فى بيئة معينة يكتسب كفاءته اللغوية فى هذه البيئة ، بمعنى أنه يكتسب معرفة ضمنية بقواعد اللغة ، تمكنه تلك المعرفة من انتاج جمل لغته وتفهمها، ومن ثم فإن قواعد الكفاءة اللغوية هى موضوع الدراسة اللغوية .

---

(1) N.Chomsly : syntactic structures , p,15,1957 The Hague mouton trad francais Ed seuil 1969

(2) N. Chomsky : Language and mind , new york , p,25, 1968 Francaise Ed Seuil Paris, 1970.

ويتضمن تعريف تشومسكى للغة مجموعة الحقائق الآتية :

أ– الإنسان مزود بقدرة لغوية فطرية عامة تمكنه من استخدام اللغة .

ب – جمل اللغة وليس مفرداتها ، هى محور نشاط الاتصال الإنسانى أداءً وفهماً .

ج – اللغة وسيلة لفهم طبيعة العقل البشرى .

ويمكننا فى ضوء هذه الحقائق أن نتعرف مجموعة أسس ، تتصل بماهية اللغة ووظيفها وهى : –

١ – اللغة أصوا إنسانية إرادية .

٢ – وظيفة اللغة الاجتماعية هى الاتصال والتعبير .

٣ – اللغة نظام رمزى .

٤ – اللغة نظام صوتى وصرفى ونحوى ودلالى.

٥ – اللغة قدرة فطرية عامة فى بنى البشر

انظر النحو العربى والدرس الحديث ١١٢ وما بعدها

وبعد ... فقد عرضنا فيما سلف لتعريف اللغة . عند كل من العلماء العرب من جهة ، وعند العلماء الغربيين على شتى مناهجهم واتجاهاتهم من جهة أخرى .

ولا يفوتنا أن نذكر أن العلماء العرب ، قد جمعوا فى تعريفاتهم ؛ عدداً من المسائل ، تماثل نظائرها ، عند العلماء الغربيين المحدثين ، وتكاد تقاربهم من حيث الكمية وهذه المسائل هى :[1]

١ - اللغة عبارة عن أصوات .   ٢- اللغة تتألف من كلمات .

٣ - اللغة وسيلة التعبير عن أغراض القوم

٤ - اللغة تتنوع وتختلف باختلاف أصحابها

٥ - اللغة مواضعة واصطلاح .

٦ - اللغة وضعت للدلالة على المعانى .

٧ - أصوات اللغة محدودة متناهية وكذا مفرادتها .

٨ - الاصطلاح قائم بشكل أو بآخر ضمن اللغة .

٩ - كلمات اللغة تتكون من وحدات منفصلة .

١٠ - اللغة قائمة على مستويين وهما : مستوى الأصوات ومستوى الكلمات .

١١ - اللغة فعل لساني .

١٢ - االلغة ملكة لسانية .

١٣ - اللغة عملية مقصودة لذاتها .

١٤ - اللغة ميزة إنسانية مكتسبة .

يظهر هذا الحصر . للمسائل التي ذكرها العلماء العرب ، فى تعريفاتهم للغة ، أنهم يماثلون إلى حدٍّ كبير ، ماذكره علماء اللغة الغربيون من مسائل مختلفة للغة ، وأن هؤلاء العلماء الغربيين لم يزيدوا فى تعريفاتهم للغة إلا خمس مسائل فحسب عن العلماء العرب ،

---

(١) انظر :الملكة اللسانية ٢٢ كذا : بحوث ألسنية عربية ٦٥

في حين ذكر العلماء العرب ثلاث مسائل لم يذكرها العلماء الغربيين ؛ وهذه المسائل هي :[1]

١ – اللغة تتكون من كلمات .   ٢– الاصطلاح قائم بشكل أو بآخر ضمن اللغة.

٣ – اللغة فعل لساني .

أما المسائل الخمسة التي لم يذكرها العلماء العرب ، وذكرها العلماء الغربيون فهي:[2]

١ – الوحدات الصوتية متغايرة فيما بينها .   ٢ – جمل اللغة غير محدودة

٣ – اللغة تنظيم من الإشارات أو الرموز .   ٤ – اللغة تنظيم من القواعد .

٥ – اللغة عادة كلامية يكيفها المثير .

تؤكد هذه المقارنه في تعريف اللغة فيما بين العلماء العرب القدامى ، والعلماء اللغويين الغربيين المحدثين . مدى إحاطة العلماء العرب القدامى بمفهوم اللغة وإدراكهم للعديد من المسائل الهامة التي تختص بها اللغة – أية لغة – وأن الفروق يسيرة للغاية فيما بينهم وبين العلماء الغربيين ، على الرغم من البعد الزمني الكبير ، وقلة وسائل البحث واعتماد العلماء العرب على إمكانات ذاتية خاصة تتمثل في عمق إداركهم وثاقب نظرهم . تلك الإمكانات والقدرات ، ينبغي أن تبعث فينا الحافز والهمة من أجل إبراز هذه الجهود العظيمة ، لتحظى بالمكانة اللائقة التي تستحقها .

---

(١) انظر : بحوث ألسنية عربية ٧١ وكذا : الملكة اللسانية ٢٠.

(٢) انظر : بحوث ألسنية عربية ٧٢ وكذا: الملكة اللسانية ٢٠ ، ولقد أدرك العلماء العرب أن اللغة نظيم من القواعد . بالرغم من أن أحداً منهم لم يذكر ذلك في تعريفه للغه .

المبحث الثانى : الجهود النحوية عند العلماء العرب

تمهيد

ليس من شك فى أن العلماء العرب ؛ قد بذلوا جهوداً مشكورة ومحمودة فى دراسة النحو العربى ، لا ينكرها إلا جاحد ، ينحاز إلى غير الحق والحقيقة !

لقد شمر هؤلاء العلماء . عن سواعد الجد ، واستنهضوا عزائمهم الصادقة وشحذوا هممهم لإنشاء علم يحفظ العربية ؛ لغة القرآن الكريم ، من اللحن والاندثار .

فلقد كان الدافع - عندهم - هو الحفاظ على لغة القرآن الكريم ؛ دستور الإسلام ومنهاج المسلمين ، فما توانت عزائمهم ولا استكانت هممهم ، بل طفقوا يدققون فيما بينهم ويتنافسون بهدف الوصول إلى الصواب فى قواعدهم .

إننا لا نستطيع أن نقول بأن العلماء العرب ، قد أصابوا فى جميع ما ذكروه فى دراسة أبواب النحو المختلفة ، أو أنهم قد استخدموا منهجاً علمياً التزموا به ، أو اتبعوا مسلكاً موحداً من الدرس والتحليل . فلم يكن هذا الهدف المثالى مواتياً لهم أو متوافراً بين أيديهم فى هذا الزمان المتقدم ، ولم تكن منهجية البحث من الأمور التى يمكن تحقيقها وتنفيذها ، سواء بالنسبة للعلماء العرب ، أو بالنسبة لغيرهم من العلماء الغربيين !

إن كتاب سيبويه ؛ الذى يعد أول كتاب فى النحو العربى ، يصل إلينا ، يعد - حقاً كتاباً كاملاً متكاملاً فى عرض جميع أبواب النحو والصرف والأصوات العربية . كما يعد نموذجاً حقيقيا لنهج التأليف العربى فى هذا المجال ، حذا حذوه عديد من العلماء لفترة ليست بالقصيرة .

إن الربط بين أبواب النحو والصرف والأصوات ، لم يكن وارداً فى ذهن سيبويه ، وهو يضع كتابه : «الكتاب» ، فلسنا نلمح ما يؤكد أن سيبويه ،راعى أن يجعل الجملة النحوية ، هى قمة الدراسات اللغوية ، وأن هدف اللغوى أو النحوى ، ينبغى أن يرتكز على تحليل الجملة النحوية . عندما جعل أبواب النحو ومسائله فى أول الكتاب ، أو أنه أدرك - حقاً -

أن مستويات الصرف والأصوات والدلالة ، إنما تأتى فى المقام الثانى باعتبارها مستويات تفسيرية ، عندما أخرها بعد أبواب النحو ، كما هو الحال فى النظرية التوليدية التحويلية ؛ التى تعد أحدث النظريات اللغوية فى البحث اللغوى الحديث . كما أن سيبويه لم يشأ أن يبدأ كتابه بمسائل الأصوات ، ثم يتبعها بمسائل الصرف ، منتهياً بأبواب النحو ومسائله ، موظفاً الأصوات فى خدمة الصرف ، ثم يوظف الأبنية فى البناء النحوى ، كما هو الحال عند علماء المنهج البنيوى ، لم يكن سيبويه يعى هذا الترتيب أو يعى مخالفته له رافضاً لمنهجيته ، راضياً بالمنهج التوليدى التحويلى !

والحق أن سيبويه ، وهو يؤلف " الكتاب " لم يضع فى حسبانه شيئاً من هذا ولا ذاك ، وبالرغم من ذلك ، فإننا لا نعدم فى ثنايا الكتاب أبواباً تتفق فى تناولها مع أسس البنيوية وقواعدها كما لا نعدم أبواباً أخرى ، تتفق فى تناولها مع أسس التوليدية التحويلية وقواعدها، ناهيك عن الأبواب الأخرى العديدة ؛ التى جاءت متفقة مع المنهج التقليدى وقواعده.

ونقدم ، فيما يلى ربطاً بين الدراسات النحوية عند العرب ، ونظريات البحث اللغوى الحديث :

أولاً : الاتجاه التقليدى :

ينبغى أن نؤكد أن علماء هذا الاتجاه ، من اللغويين والنحاة ، يتمسكون بمفاهيم لا يحيدون عنها ، فهم يتمسكون بقواعد اللغة وبالحرص على نقائها وفصاحتها ، مع ضرورة أن تتضمن اللغة مفهوماً جمالياً ، يقوم على اعتماد الصيغ اللغوية ؛ التى توصف بالصيغ الحسنة ، استناداً إلى معيار جمالى بحت ، فوظيفة هذه القواعد التقليدية – فى المقام الأول– هو المحافظة على أصالة اللغة وترسيخ مفهومها الجمالى .[1]

ومن ثم ، فإن هذا النهج يعتمد على الأمثلة والشواهد القديمة ، مع التمسك بضرورة القياس على معيار صحتها ، باعتبار أن الأقدم – دائماً – هو الأفصح والأصوب . ولذلك

(١) انظر : مباحث فى النظرية الألسنية

كان احتفاؤهم واهتمامهم بالأصول اللغوية المكتوبة !

وإذا كانت التقليدية ، قد سادت التفكير اللغوى بعامة ، والنحوى بخاصة ، فترة طويلة من الزمان ، سواء عند العلماء الغربيين أم عند العلماء العرب على السواء . إذ إننا لا نعثر على تطور أو تغير ذى بال على هذه القواعد ، طوال فترة طويلة ! وإذا ما عدنا إلى التقسيمات النحوية اليونانية ابتداءً من : " دينيس دى تراس " أو " أبولون ديسكون " فإننا لا نجد تغييراً قد طرأ عليه طوال القرون الوسطى . ولا تصادفنا طوال تلك الفترة بحوث تاريخية مقارنة خارج إطار هذا المنهج ، إلا فى سنة ١٩١٠ م حيث كتاب : بروجمان ودلبرك؛ " الأساس " وهو أشهر كتاب نحو مقارن فى اللغات الهندوأوروبية . وإذا كانت الدراسات النحوية التقليدية ، عند العلماء الغربيين ، لم تكن ذات مسار أو اتجاه واحد ، وإنما جاءت فى صورة مزيج من الآراء وخليط من الأفكار ، ووجهات النظر المتباينة ؛ التى ظهرت عبر عصور مختلفة واستخدمتها مدارس لغوية متعددة ، اعتمدت فيها على آراء وأقوال عند تركيب الجملة عند أفلاطون وأرسطو ، كما اعتمدت – كذلك – على نظريات عن أجزاء الكلام ، تعود إلى الرواقيين واعتمدت – أيضاً – على أفكار عن المعنى وطبيعته فى بعض فترات القرون الوسطى، واعتمدت – كذلك – على فرضيات عن علاقة اللغة بالفعل منحدرة من قواعد وضعت فى القرن الثامن عشر فى انجلترا، كما أنها اعتمدت على دراسات عن تاريخ اللغة ، تعود إلى القرن التاسع عشر(١)

فسمة الخلط والاضطراب هذه ، التي تميز هذا النهج التقليدى فى الدراسات اللغوية والنحوية فى أوربا ، نجد مثيلاً لها فى الدراسات النحوية التقليدية ، عند العلماء العرب ، حيث جاءت أعمال هؤلاء خليطاً من أمشاج وأنواع شتى من الاتجاهات والأفكار والمبادئ التى يصعب أن نعثر على الخيوط بينها أو أن ندرك مدى ارتباطها بعضها ببعض ، إن هذه الاتجاهات ، ومايصاحبها من أفكار ومبادئ . ليس من النادر أن تجد التناقض بينها واضحاً، أو أن تحس بالاضطراب الناتج عن محاولة تطبيق هذا الخليط المتناسق من

---

(١) انظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ١٠٢ وكذا :

D. Crystal : Linguistics , p. 40

أساليب البحث .[1] ويمكننا أن نوجز الأساليب والاتجاهات التى اتبعها النحاة العرب على الوجه الآتى :[2]

١- الاتجاهات الفلسفية والمنطقية :

ويظهر أثر هذه الاتجاهات فى كثير من مشكلات النحو العربى . من أهمها ؛ مشكلة العامل ، وما تفرع عنها من قضايا فرعية لا حصر لها ، فالعامل لابد أن يعمل ، ولابد أن يكون له أثر ظاهر أو مقدر وكل معمول لابد له من عامل ، وعن هاتين القضيتين ، تفرعت مسائل ضخمة ، عرفت بالتعقيد والتعسف من ذلك مثلاً ، مسائل الحذف والاستتار والتنازع والاشتغال .[3]

---

(١) دراسات فى علم اللغة العام – القسم الثانى ٥٤

(٢) انظر : دراسات فى علم اللغة العام – القسم الثانى ٥٤ – ٥٧

(٣) لقد أصبحت نظرية العامل ، من أحدث النظريات اللغوية ؛ التى تؤسس على أساسها الدراسات النحوية ، عند علماء المدرسة التوليدية التحويلية

ومعلوم أن النحو العربى : قائم على فكرة العامل ، وأن الخليل بن أحمد ، له دور كبير فى تثبيت أصول هذه النظرية، وأنه هو الذى مدّ فروعها ، وأحكمها إحكاماً ، بحيث أخذت صورتها على مر العصور . فلقد كان يرى أنه لابد لكل رفع أو نصب أو خفض أو جزم فى كلمة من عامل يعمل فى الأسماء والأفعال المعربة ، وكذلك المبينة والعامل إما أن يكون لفظيا، مثل : المبتدأ ؛ الذى يعمل الرفع فى الخبر ، والفعل الذى يعمل الرفع فى الفاعل والنصب فى المفعولات ، وإما أن يكون العامل معنويا ، مثل الابتداء الذى يعمل الرفع فى المبتدأ . والعوامل منها الأدوات ومنها الحروف ، ومنها ماهو جازم ومنها ماهو ناصب ، ومنها ما ينصب بعده ويرفعه كالفعل مثل : إن وأخواتها ، حيث يقول سيبويه : " زعم الخليل أن هذه الحروف عملت عملية الرفع والنصب ، كما عملت الرفع والنصب ، حين قلت : كان أخاك زيد ، إلا أنه ليس لك أن تقول : كان أخوك عبد الله ، تريد : كان عبد الله أخوك ، لأنها لا تتصرف تصرف الأفعال ، ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمرون فى كان . ومن ثم فرقوا بينهما ، كما فرقوا بين ليس وما ، فلم يجروها مجراها ، ولكن قيل هى بمنزلة الأفعال فيما بعدها . وليست بأفعال . الكتاب ١/٢٨٠

والعوامل عنده تعمل ، سواء أكانت ظاهرة أم محذوفة ، وكما أن العوامل تحذف ، فإن المعمولات هى الأخرى تحذف .

والمتصفح لكتاب سيبويه ، يرى كيف أن سيبويه ، قد عوّل على هذه النظرية فى أبواب الكتاب كلها أو يكاد .

وتحفل جميع كتب النحو العربى بهذه النظرية ، وبالاعتماد على أسسها وقواعدها ، ولم نجد أحداً منهم يختلف عن سابقيه ، سوى ابن مضاء ، الذى أنكر – فقط – إفراط النحاة فى تعدد العوامل وخروج النحاة من مجرد القول بالعامل الأول .إلى الإمعان فى البحث عن عامل العامل ، وعامل عامل العامل ! وهكذا فى كتابه : الرد على النحاة ، فقد أوصلهم عبد القاهر إلى مائة عامل فى كتابه : العوامل المائة .. وسوف يتأكد لنا مدى احتفال النظرية التوليدية التحويلية ، بهذه الفكرة ، فكرة العامل ، وأن نظرية العامل والربط السياقى government binding theory =

٢ - التأويل والافتراض :

والالتجاء إلى التأويل دليل التناقض فى الأحكام ، نتيجة لتضارب المناهج أو عدم دقتها ، ومعلوم أن التأويل ماهو إلا محاولة ، لجعل القواعد تتمشى مع قواعد المنطق ، علماً بأن قضايا المنطق ، لا يجوز تطبيقها على قواعد النحو ، ومن هنا جاءت محاولات النحاة لتفسير علل البناء والإعراب[١]

٣- المعيارية

اعتمد النحاة العرب على المعيارية . وكان اتجاهاً سائداً - عندهم - حيث أسسوا القواعد وفق قوالب معينة من اللغة ، لا يحيدون عنها ، تلك القوالب . هى ما يجب أن يتكلمها الناس ، ومن هنا جاء اهتمامهم بتخليص اللغة من الشواذ والشوائب ، بقصد المحافظة عليها من اللحن والتحريف .

- وينبغى أن نؤكد : أن النهج التقليدى - عند النحاة العرب - قد تأكدت صحته فى كثير من المعالجات ، التى قاموا بها وأن سلوكهم فى هذه المعالجات ، قد جاء متوافقاً مع ما تنادى به أحدث النظريات اللغوية التى ترى بأن القواعد التقليدية ، ليست بهذه الصورة من عدم النفع أو الاختلاط ، أو أنها " ليس لهاما تعلمنا ، بل العكس ، فقد تبينت بعض الصفات المميزة فى الجملة ، سواء فى المستوى الدلالى أو المنطقى أو الصوتى ، ولكن هذه

= هى من أحدث ما توصلت إليه النظرية ، وذلك عند الحديث عن الربط بين نظرية العامل عند النحاة العرب ونظرية العامل والربط السياقى عند تشومسكى .

(١) لقد اعتمد تشومسكى رائد النظرية التوليدية التحويلية ، فى بناء نظريته على الفلسفة العقلية الذهنية ،وقد تأثر فى هذا الأمر بالفيلسوف العقلى " ديكارت " وجماعة النحاة الشبان بألمانيا وكذلك بمدرسة " بورت رويال " التى كانت امتداداً طبيعياً للمنهج العقلى عند ديكارت ، كما تأثر بالمفكر همبولد ت "humboldt " ، حيث يقول : " ليس من الجديد القول أن اللغة مبنية على أساس نظام من القوانين التي تقرر تأويل جمل اللغة الكثيرة بغير حدود ... فلقد عبر همبولدت عن هذا بشكل واضح قبل ما يزيد على القرن فى مقدمته لعلم اللغة المشهورة ، ولو أنه - نادراً - ماقرأت همبولدت ، ولقد كانت وجهة نظره القائلة (إن اللغة تستخدم بشكل غير محدود وسائل محدودة) وأن قواعد اللغة ، يجب أن تصف العمليات التى تجعل هذا ممكناً ، كانت وجهة النظر هذه نتاجاً لاهتمام ملح ضمن الفلسفة العقلية للغة . والعقل بهذا الجانب الخلاق للاستعمال اللغوى . مظاهر النظرية النحوية ٢٥

الصفات ، لم تكن هى الصفات الممتازة تركيبياً، ثم إنها جمعت حول اللغات التى درستها أكداساً ضخمة من الأحداث التركيبية ، وُصفت وحُلِّلتْ ثم رُتبت باعتناء على الرغم من أن الترتيب قد جاء - دائماً - متباينا بالنسبة إلى هيكل اللغة ، فحيناً جاء الترتيب وفقا لمقاييس شكلية (كوجود اسم الموصول أو أداة التعريف أو الجمل المتفرعة) وحيناً آخر جاء وفقاً لمقاييس دلالية ، فى حالة عدم توافقها مع المقاييس الشكلية .(١)

ثانياً : المنهج الوصفى البنيوى :

يعد دى سوسير ؛ هو رائد المنهج الوصفى البنيوى ، ويمكننا أن ندرك من خلال المفاهيم التى أرساها ، وثبّت أركانها ، أن البنيوية تقوم أساساً على تحليل عناصر اللغة ، بالاستعانة بالعناصر الأخرى ، التى تشتمل عليها تلك اللغة ، حيث يقوم الباحث بوصف العناصر الصوتية ، محاولاً من خلالها الوصل إلى تكوين الوحدات المورفولوجية ، لتكون - بدروها - العبارات فالجمل . وينبغى أن نؤكد أن المدارس اللغوية الحديثة ؛ التى ظهرت فى أوروبا وأمريكا ، تنتسب جميعها . بشكل أو بآخر إلى هذا المنهج . فالمنهج البنيوى ينظر إلى اللغة على أنها مؤسسة جماعية ، تفرض نفسها على الأفراد . وتتناقل بطريقة جبرية من جيل إلى جيل آخر منذ أن كان الناس تستشف أشكالها من أشكال سابقة تنحدر هى نفسها من أشكال أكثر بدائية وهلم جرا ، دون توقف من أصل وحيد ، أو أصول أولية متعددة من جهة أخرى . تدل كل كلمة على مفهوم يشكل معناها " (٢)

---

(١) انظر : مفاتيح الألسنية ١٠٧

(٢) البنيوية ، جان بياجيه ٦٧ ، كما يذكر ليونز "lyons" أن البنيوية عبارة عن : " الصيحة التى جمعت بين مدارس مختلفة فى علم اللغة فى القرن العشرين : وبهذا المعنى يمكن القول . بأن المدارس اللغوية الحديثة منذ دى سوسير وحتى تشومسكى : تنتمى إلى المذهب البنيوى بصورة أو بأخرى ، لأنها جميعاً تؤمن بأن اللغة عبارة عن نظام يتكون من عدة أنظمة ، فهى من حيث كونها مجموعة من العلامات أو الرموز ، إلا أن هذه العلامات ، وتلك الرموز : تتكون أولاً من أصوات تحدثها أعضاء النطق الإنسانى وتدركها الأذن . وهذه الأصوا ت . تتركب بطريقة اصطلاحية فى وحدات ذات دلالات نسميها الكلمات والجمل ، وكل ذلك يشكل فى النهاية بطريقة مخصوصة النظم فى اللغة ، وهى النظام الصوتى والنظام الفونولوجى والنظام النحوى والنظام الدلالى ، وجميعها ذات وجود مستقل نسميه النظام اللغوى . ويعتبر دى سوسير هو واضع الأصول الأولى للنظرية البنيوية بهذا المعنى بما أرساه من مبادئ فى التحليل اللغوى ودراسة اللغة وخاصة التفرقة بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية " نظرية تشومسكى اللغوية ٦٤

وإذا كانت البنية وتحليلها ، هى هدف علم اللغة البنيوى ، فقد كانت – أيضاً – هدف النحاة وعلماء اللغة فى التراث العربى ، فكتاب سيبويه ، يشتمل على عناصر بنيوية ، كما أن نحاة العربية الأوائل ، مثل الخليل وسيبويه ، قد ميزوا بين مستويين من مستويات الدراسة النحوية :

المستوى الأول : ويتمثل فى رصد الأداء وتتبعه ، وتمثله القواعد المجردة ؛ التى يغلب عليها الطابع التعليمى .

المستوى الثانى : ويتمثل فى علاقة المبنى بالمعنى ، وتمثله العلاقات التركيبية المختلفة بين الكلمات داخل الجملة أو بين الجمل وبعضها . فلقد أدرك النحاة العرب – بحق- العلاقة بين المبنى والمعنى والمبنى – عندهم .. يبدأ من أصغر الوحدات ؛ متمثلاً فى الأصوات والحروف فى حين تمثل الجملة أكبر الوحدات بناءً .

فلم يكن إذن خافياً عليهم – بحال من الأحوال – مفهوم ثنائية التركيب ، الذى يعد من أهم خصائص البنيوية ، فلم يكن هدفهم الأوحد . هو القول بالصواب والخطأ اللغوى فحسب، بل إنهم ينطلقون فى أبحاثهم إلى فكرة التضام والتركيب . وماينشأ عن هذه الفكرة من علاقات ، لقد تجلت هذه الفكرة ، مع نهاية القرن الرابع الهجرى ، عند ابن جنى من علماء اللغة ، وعند عبد القاهر الجرجانى من علماء البلاغة (١)

---

(١) يقول عبد القاهر الجرجانى : " ومعلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها بسبب من بعض : والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينهما طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام ، تعليق اسم باسم ، وتعليق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما . " دلائل الإعجاز ٤

ويقول أيضا : " فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض ، وهى كما تراها معانى النحو وأحكامه ، وكذلك السبيل فى كل شئ كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض . لا ترى شيئاً من ذلك ، يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه . " دلائل الإعجاز ٨

كما يذكر – أيضا – بأنه يجب أن « تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول وأن تحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً ... فمن ذلك أن تزواج بين معنيين فى الشرط والجزاء ." دلائل الإعجاز٩٣

ويقول .. أيضاً " وينظر فى الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه =

لقد كان بعض النحاة العرب ، مدركين للعلاقة بين مستويات اللغة ، وضرورة اعتماد مسائل النحو على المعطيات الصرفية والصوتية ، يأتى فى مقدمة هؤلاء النحاة : " الزجاجى" و" السكاكى " ففى حين حاول الزجاجى تطبيق تلك الفكرة ، من ضرورة اعتماد النحو ومسائله على أبواب الصرف والأصوات ، إلا أنه أخفق فى ذلك ، ولم يوفق كل التوفيق ! فإن السكاكى، قد اكتفى بإدراك تلك العلاقة ، دون تطبيق عملى لها ، مكتفياً ببيان ضرورة اعتماد أبواب النحو على مسائل الصرف والأصوات .

إن الفكر البنيوى الذى يرى اللغة بنية منظمة متكاملة ، فيعنى بتصريف الكلمات وصلاتها الاشتقاقية وصورها الإسنادية والإضافية، من حيث الفصل والوصل مع إبراز الطابع العضوى لأنماط اللغة ، وما يترتب على ذلك من فكرة المعاقبة فى الموقع : ثم الربط بين الصورة والوظيفية التى تؤديها الصورة فى النظام [1] كل هذه الأمور : والمسائل المختلفة ، حفلت بها كتب النحو العربى وتآليفه ، ولم تكن خافية على أذهان النحاة العرب . بل إنهم أدركوها وعالجوها باقتدار يحسب لهم .

كما إن فكرة الضمائم ، تلك الفكرة التى تعتمد على تحديد المكونات الكبرى للجملة ، من خلال الاعتماد على علاقات خاصة بين كلمة وأخرى فى داخل الجملة ، هى أقوى من علاقة هذه الكلمات ببقية عناصر الجملة ، لم تكن ، هذه الفكرة بغريبة أو ببعيدة عن متناول فكرهم وطرحهم للمسائل النحوية ، لقد عرضها النحاة العرب ، وبنوا عليها بعض تحليلاتهم للجملة ، لكن هذه التحليلات ، جاءت فى إطار تحديد نوع العلاقة بين كلمات الضميمة ، وسموها علاقة إضافة تارة أو علاقة وصل تارة أخرى أو علاقة تبعية تارة ثالثة أو علاقة

= الوصل موضع " الواو » من موضع " الفاء " وموضع " الفاء " " من موضع " ثم " وموضع " أو " من موضع " أم " وموضع "لكن" من موضع " بل " دلائل الاعجاز ٨

كل ماتيك النصوص تؤكد " اننا أمام عالم يدرك حقيقة العلاقات النحوية بين أبوابه المتعددة ، كالإسناد بين المسند والمسند إليه والتعدية بين الفعل والمفعول به والسببية بين الفعل والمفعول لأجله . انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٦ .

(١) انظر : تعليم النحو بين النظرية والتطبيق د.تمام حسان ، مجلة المناهل – المغرب – العدد ٧ سنة ١٩٦٧ ص ١١٢ وما بعدها .

جواب تارة رابعة ! [١]

إن نظام التحليل إلى المكونات ، تلك الفكرة ؛ التى تأسست لدى علماء اللغة البنيويين فى أمريكا وبخاصة عند بلومفيلد ، فى كتابه الشهير : اللغة " language " لم يكن هذا الشكل من التحليل – أيضا – بعيداً عن أذهان النحاة العرب ، فلقد استشعره النحويون العرب ، فى الإعراب وصدروا عنه ، حتى إنها لتعد من قبيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية ومعلميها . [٢]

لم تكن التوزيعية ، التى تأسست فى احضان المدرسة البنيوية الأمريكية ، والتى نلمح بداياتها عند زيلج هاريس "z . Harris" فى كتابه : مناهج فى علم اللغة البنيوى " Methodism in structural lingustics " وكان لكل من : هوكيت Hokett وجليسون Gleason دوركبير فى ذيوعها ونشرها ، كما كان للغوى الإنجليزى : فريز "Fries" فضل كبير فى إبرازها عملياً حيث قام بتطبيقها تطبيقاً شاملاً على اللغة الإنجليزية فى كتابه : التركيب فى الإنجليزية "Structure of English" " ويعد هذا التطبيق نموذجاً للتركيبات التوزيعية .[٣]

تركز هذه النظرية على تعريف أقسام الكلام : تعريفاً مكانياً بحيث لا تعرف بوظيفتها التركيبية التامة ، وإنما بتوزيعها وحده (أى جميع الكلمات التى يمكن أن تشغل نفس المجموعة من المواضع) فكل عنصر لغوى له سياقات محددة ، يأتى فيها ، وسياقات أخرى لا يقع فيها .

لم تكن هذه النظرية – فى عمومها – بغريبة أو ببعيدة عن متناول النحاة العرب ، وليست فكرة التضام التى تظهر واضحة فى أعمال النحاة العرب . إلا تطبيقاً لمفهوم التوزيعية ، ولقد عرف النحاة العرب أنواع الضمائم المختلفة ، وحددوا الكلمات التى ينبغى أن تقع فى توزيع معين ، ولا تقع فى توزيع آخر ، لأنها لا تصلح لذلك . فالأساس فى توزيع

---

(١) تعليم النحو بين النظرية والتطبيق ١١٢ وما بعدها .

(٢) نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث – بيروت ١٩٨٠ ص ٢٩

(٣) انظر : الألسنية (علم اللغة العام) المبادئ الأعلام ١٠٤

الوحدات اللغوية مرتبط بما يحيط بها أو بما يجاورها من وحدات أخرى ، هذا الأساس هو ما قام به العلماء العرب فى أبواب الإضافة والتوابع والجواب وغيرها من الأبواب !

ثالثاً : المنهج التوليدى التحويلى :

يرى تشومسكى أن اللغة : " كناية عن مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل ، كل جملة منها طولها محدود ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر ، وكل اللغات الطبيعية ، فى شكلها المكتوب والمنطوق ، تتوافق مع هذا التعريف ، وذلك لأن كل لغة طبيعية، تحتوى على عدد متناهٍ من الفونيمات ، وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع فونيمات ، علماً بأن عدد الجمل غير متناهٍ " (١)

ومن ثم فإن هذه النظرية لم تُعر الوصف أهمية تعادل الهدف الرئيسى ؛ المتمثل فى إعطاء تفسير لهذه الظاهرة العقلية الإنسانية ، التى تسمى اللغة ، ومن هنا كان الشغل الشاغل لهذه النظرية ، هو تحديد صيغة القواعد اللغوية ؛ التى تمثل ذلك النظام الذهنى ، فالقواعد هى موضوع الدارسين والعلماء فى هذه النظرية ، لأنها النظام الذى عن طريقه يولد المتكلم – متكلم اللغة المعينة – كل الجمل فى لغته .

وينبغى أن نؤكد أن تشومسكى يرى أن النظرية اللغوية ، يجب أن تحلل قدرة المتكلم على أن ينتج الجمل التى لم يسمعها من قبل وعلى أن يتفهمها ، فيقوم عمل عالم اللغة على صياغة القواعد ؛ التى بمقدورها إنتاج مادة البحث أى القواعد القائمة ضمن مقدرة متكلم اللغة ، على إنتاج الجمل وتفهمها " وفى هذا العدد يقول روقت : " إن الواقعة الرئيسية التى يجب أن يحيط بها عالم اللغة هى الآتية : يستطيع كل شخص راشد ينطق بلغة معينة أن يرسل فى كل وقت وبصورة تلقائية عدداً لا متناهياً من الجمل أو أن يدركها ويفهمها ، وذلك دون أن يكون قد تلفظ بمعظم هذه الجمل أو سمع بها مطلقاً ، يمتلك كل شخص إذن بعض الاستعدادت المخصوصة جداً والتى يمكن أن ندعوها بكفاءته اللغوية."(٢)

---

(1) N. Chomsky : Syntux structures, the hague monton trad, p,15,1969

(٢) انظر : اكتساب اللغة ١٢ وصدد هذا يقول تشومسكى عن اللغة ؛ التى يتم وصفها ودراستها بواسطة قواعد نحوية معينة – أنها عبارة عن جميع الجمل التى تولدها هذه اللغة ، وهذه الجمل إما أن تكون جملاً محدودة العدد =

فالنظرية اللغوية كما حددها تشومسكى ، تخص (المتكلم – السامع) المثالى ، المنتمى إلى جماعة بشرية ذات تماثل كلا مى تام المعارف للغة ، تلك الجماعة معرفة تامة ، والذى لا يكون متأثراً بحدود لا صلة لها بالقواعد ، كالذاكرة المحدودة أو تحول الانتباه أو عدم المتابعة أو الأخطاء الكلامية العشوائية أو المتواترة . حين يطبق معرفته اللغوية في مجال الأداء الكلامى (١)

ولسنا فى مجال يسمح بالحديث عن ماهية المصطلحات ؛ التى اعتمدت عليها النظرية، والتى تُعدُّ أساساً فى بنائها مثل : الفرق بين الجمل الأصولية والجمل المقبولة . وأن الجمل الأصولية ، تستمد أصوليتها من البنية العميقة ، التى تمثل القدرة الكامنة أو الكفاءة اللغوية وأن الجمل المقبولة تستمد مقبوليتها من البنية السطحية ؛ التى تمثل الأداء الكلامى المنطوق .

إن نظرة مقارنة دقيقة بين الأسس التى اعتمدت عليها المدرسة التوليدية التحويلية ، وبين القواعد النحوية ؛ التى أرساها العلماء العرب ، لتؤكد لنا ، أن النحو العربى ، لم يكن بعيداً عن هذه الأسس والأفكار . فإن علماً شامخاً من أعلام تراثنا العربى ألا وهو العلامة عبد القاهر الجرجانى ، نجده وقد سبق تشومسكى إلى تحديد هذه الفروق الدقيقة

= أو غير محدودة العدد – وأن عدد الجمل فى اللغة الإنجليزية ، وغيرها من اللغات الطبيعية غير محدود ، أو على الأقل من الصعب حصره ، لأن هناك جملاً وعبارات فى اللغة الانجليزية ، قد تطول وتمتد إلى غير نهاية ، ومع ذلك فهى جمل عادية ومقبولة من المتكلمين بهذه اللغة "

ولسنا تعدم نماذج لهذه اللغة فى اللغة العربية ، فقد ذكر ابن هشام فى كتابه " مغنى اللبيب ، هذا النوع من الجمل المركبة ، وسماها الجمل الكبرى ، فالجملة الكبرى قد تكون اسمية ، وقد تكون فعلية ، والاسمية يكون حد خبرهاجملة نحو قولنا : " زيد قائم أبوه " والفعلية نحو قولنا : " ظننت زيداً يقوم أبوه " كما أن الجملة عنده تكون كبرى وصغرى ، فقولنا : " زيد أبوه غلامه منطلق " جملة كبرى ، وقولنا ، " غلامه منطلق " جملة صغرى ، فالجملة الكبرى تتألف من أكثر من جملة ، فتارةً تتألف من جملتين اسميتين ، وتارة تتألف من جملتين فعليتين .

فالجمل العربية إذن تطول وتمتد ، شأنها فى ذلك ، شأن اللغات الطبيعية الأخرى ولعل الجمل التى لا محل لها من الإعراب ، وجمل الصلة والصفة والحال ، وجمل الاستئناف والجمل الاعتراضية والتفسيرية وغيرها ، خير دليل على ذلك .

وعلى الرغم من أن الجمل السابقة ، هى المسئولة عن مهمة الامتداد والتطويل فى الجملة الكبرى فإنها – دائماً – تكون محدودة بحدود ، لكن عددها غير محدود .

(١) مظاهر النظرية النحوية ٢٧

بين العميق وغير العميق من عناصر الجملة ، حين فرق بين النظم والترتيب والبناء والتعليق.فجعل النظم للمعانى فى النفس ، وهو تماماً ، البنية العميقة عند تشومسكى ، أما البناء ، فهو البنية السطحية الحاصلة بعد الترتيب بواسطة الكلمات كما أن التعليق هو الجانب الدلالى من هذه الكلمات التى فى السياق [1]

– لم تكن فكرة التفسير العقلى للغة وقواعدها بعيدة عن إدراك عبد القاهر ووعيه ، فلقد نحا بقواعد اللغة منحى عقلياً ، شأنه فى ذلك ، شأن النظرية التوليدية التحويلية ، عند رائدها " تشومسكى " الذى يؤكد أن الشغل الشاغل ، هو تحديد صيغة القواعد اللغوية ، التى تمثل ذلك النظام الذهنى فالقواعد إذن هى موضوع الدارسين والعلماء فى هذه النظرية. " حيث يصرح قائلاً : " ليس الغرض بنظم أن توالت ألفاظها فى النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل "[2] ويقول أيضاً ، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضى فى نظمها آثار المعانى ، وتُرتبُها على حسب ترتُّب المعانى فى النفس ، فهو إذن نظم نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضمُّ الشئ إلى الشئ ، كيف جاء واتفق " [3]

– إن القدرة اللغوية ، التى تمثلها الكفاءة الذاتية الكامنة ، التى يمتلكها كل متكلم أو مستمع جيد للغته ، والتى من شأنها أن تسمح لصاحبها بتوليد عبارات وجمل لا نهائية ، والتى تعد من أساسيات النظرية التوليدية التحويلية : لم تكن هذه القدرة اللغوية بخافيةٍ – كذلك – عن إدراك عبد القاهر أو عن إدراكه لمدى أهميتها ،. فهو يقول : " اعلم أن ليس النظم ، إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم . النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه ؛ التى تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تُخِلُّ بشئ منه". [4] ولعل ذلك يؤكد لنا مدى إدراك هذا العالم الجليل بقواعد الكفاءة الذاتية ؛ التى ينبغى أن

---

(١) انظر : تعليم النحو بين النظرية والتطبيق – مجلة المناهل – العدد ٧ سنة ١٩٦٧ ص ١١٤ بالمغرب

(٢) دلائل الإعجاز ٥١

(٣) دلائل الإعجاز ٤٩

(٤) دلائل الإعجاز ٨١

تتوفر لكل متكلم مستمع جيد للغة ، ومن ثمَّ فإن الجمل التى يتم توليدها وفقاً لقواعد الكفاءة الذاتية ، إنما هى جمل أصولية ، لأنها تنتمى إلى الكفاءة الذاتية الصحيحة التى لا يخطئ صاحبها ، لأن راسخة فى ذهنه رسوخ السليقة ، وينبغى على المتكلم أن يراعى قواعد صحتها، لكى يكون كلامه صحيحاً وجمله سليمة ، ويتجلى لنا ذلك فى قوله وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى "الخبر" إلى الوجوه التى تراها فى قولك : " زيدٌ منطلقٌ " و" زيد ينطلق " و"ينطلق زيد" و"منطلق زيد وزيدٌ المنطلق " و"المنطلق زيدٌ " و"زيدٌ هو المنطلق " و"زيدٌ هو منطلق " (١) فهذه جميعها جمل أصولية صحيحة استوفت قواعد الكفاءة الذاتية وجاءت متوافقة مع الصحة القاعدية ، التى وضعها علماء النحو فى باب " الخبر " (٢)

ويقدم عبد القاهر الجرجانى نماذج أُخرى من الجمل العربية ؛ التى تمثل كفاءة لغوية صحيحة ومن ثم فإنها تعد جملاً أصولية ، تراعى كما أسلفنا الصحة القاعدية ؛ التى وضعها علماء النحو ، ففى باب الشرط والجزاء يقول : " وفى الشرط والجزاء (ينظر الباحث الى) الوجوه التى تراها فى قولك ." إن تخرجْ أخرج " و " إن خرجت خرجت " و " إن تخرج فأنا خارج " و " أنا خارج إن خرجت " و" أنا إن خرجت خارج " .

وفى الحال إلى الوجوه التى تراها فى قولك : " جاءنى زيد مسرعاً " و " جاءنى يُسرعُ " و" جاءنى وهو مسرعٌ " و " هو يسرع " و " جاءنى وقد أسرع " فيعرف لُكل من ذلك موضعه ، يجئ به حيث ينبغى له .

---

(١) دلائل الإعجاز ٨١ .

(٢) يؤكد تشومسكى ، أن النظرية اللغوية ، يجب أن تحلل قدرة المتكلم على أن ينتج الجمل التى لم يسمعها من قبل ، وعلى أن يتفهمها ، فيقوم عمل عالم اللغة ، على صياغة القواعد التى بمقدورها إنتاج مادة البحث ، أى القواعد القائمة ضمن مقدرة متكلم اللغة على إنتاج الجمل وتفهمها .

وتكون الجمل أصولية ، عندما يأتى فى تركيبها تركيباً سليماً جيداً ، وتكون هذه الجمل ، مركبة وفق قواعد ضمنية ، تقود عملية التكلم : ويطبقها المتكلم بصورة لا شعورية ، ولكى تكون الجملة أصولية ، يجب ألا تنحرف بالنسبة لأية قاعدة من القواعد ؛ التى تعين توافق العناصر اللغوية ، فى مستويات اللغة الثلاث : المستوى الصوتى والتركيبى والدلالى . انظر: مباحث فى النظرية الألسنية وتعليم اللغة ١١٠ .

وينظر فى الحروف التى تشترك ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه ، نحو أن يجئ بـ " ما " فى نفى الحال " وبـ " لا " إذا أراد نفي الاستقبال ، وبـ " إن " فيما يترجح بين أن يكون ، وأن لا يكون ، وبـ " إذا " فيما علم أنه كائن { ويُنظر فى الجمل التى تُسرد ، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف ما حقه الوصل موضع " الواو " من موضع " الفاء " وموضع " الفاء " من موضع " ثم " وموضع " " أو " من موضع " أم " وموضع " لكن " من موضع " بل " ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار والإضمار والإظهار ، فيصيب بكل من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له[1] ثم يؤكد عبد القاهر : ضرورة توفر الصحة القاعدية ، إلى جانب توفر صحة الكفاءة الذاتية ، التى لا تكون الجمل أصولية إلا بها بقوله : " هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو ، وقد أصيب به موضعه ، ووضع فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ما ينبغى له . " "[2]

وفى مقابل تلك النماذج ؛ التى تمثل الكفاءة اللغوية الصحيحة ، وتعد من ثم جملاً أصولية ، يقدم لنا عبد الجرجانى ، مجموعة من الأشعار ، التى خرقت فى نظمها قواعد الأصولية ، ومن ثم فإنها ليست أصولية . لأنها خرقت قواعد التصنيف الجزئى ، كما يطلق عليها فى النظرية التوليدية التحويلية . يذكر ذلك عبد القاهر قائلاً : " فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أوفساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه[3] ويقدم الجرجانى مجموعة من أشعار الفرزدق والمتنبى وأبى تمام ، يؤكد من خلالها فساد نظمها لكونها خرجت فى نظمها على معانى

---

(١) دلائل الإعجاز ٨١ – ٨٢

(٢) دلائل الإعجاز ٨٢ – ٨٣

(٣) دلائل الإعجاز ٨٣

النحو وأحكامه التى ينبغى التزامها . حيث يقول فى قول الفرزدق : (الطويل) [1]

وَمَا مِثْلُه فى النَّاسِ إلاّ مملَّكـا أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربــــه

وقول المتنبى : (الكامل) [2]

ولذا اسمُ أغْطيةِ الْعُيونِ جفونُها من أنها عملَ السيوف عواملُ

وقوله : (الكامل) [3]

الطِّيبُ أنْتَ إذا أصابك طيبُه والْماءُ أنْتَ إذا اغْتَسلت الغاسلُ

وقوله : (الطويل) [4]

وَفَاؤُ كما كالرَّبْع آشجاه طاسمُه بأنْ تُسعِدَا والدمعُ أشْفاه ساجمُه

وقول أبى تمام : (الكامل) [5]

ثانيه فى كبدِ السَّماء ولم يكـن كاثنين ثانٍ إذ هما فى الغــــار

---

(١) يريد : " وما مثله حى يقاربه إلا مملك ، أبو أم ذلك الملك أبوه ، فدل بهذا على أنه خاله ، وينصب " مملكاً " لأنه استثناء مقدم ، ما يجوز للشاعر فى الضرورة ٢٥٠

(٢) قدم المتنبى المركب التكميلى : (عمل السيوف) ؛ المفعول المطلق على المركب الاسمى ؛ اسم الفاعل (عوامل) الذى يعمل عمل الفعل ، فى قوله : (من أنها عمل السيوف عوامل) . ولا يجوز هذا التقديم عند النحاة . يقول ابن السراج: " وكذلك اسم الفاعل الذى يعمل عمل الفعل حكمه حكم الفعل " يعنى بذلك عدم جواز تقديم اسم الفاعل على معموله . الأصول ، لابن السراج ٢/٢٢٨

ويقول أيضاً : " أباه عبد الله زيد ضارب " ... قبيح لبعد العامل عن الذى عمل فيه ، وطعامك زيد يأكل أبوه ، لا يجيزها الفراء ، ولا يجيز " أكل " الأصول ٢ /٢٤٤

(٣) وأما قوله : (والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل) فإنه يريد أن يقول :

والماء الغاسل أنت ، إذا اغتسلت فيه . فأخر الصفة على الموصوف ، وفصل بينهما بالضمير المنفصل " أنت " . يقول ابن السراج : " ولا تقدم شيئاً .. مما يتصل بالصفة على الموصوف الأصول ٢/٢٢٥

(٤) وأما قول المتنبى : (وفاؤكما كالربع ... بأن تسعدا) فإنه يريد أن يقول : (وفاؤكما بأن تسعدا كالربع .) حيث قدم جملة الصفة على الموصوف . ويمتنع ذلك عند النحاة . انظر الأصول ٢ /٢٢٥

(٥) قدم أبو تمام المضاف إليه على المضاف فى قوله : (كاثنين ثانٍ إذ هما فى الغار) وكان حقه أن يقول : كثانى اثنين إذ هما فى الغار . يقول ابن السراج : " ولا يجوز أن تقدم على المضاف ولا ما اتصل به " الأصول ٢ / ٢٢٦

وقوله : (البسيط)

يَدي لِمنْ شاءَ رهنٌ لم يذق جُرَعا   مِن رَاحتَيْك دَرَى ما الصّاب والعسلُ

وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كان من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه فى هذا الشأن على غير الصواب ، وضع من تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يضعه ، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم . (١)

ثم يلخص الأمر كلّه بقوله : " وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله ، أن لا يُعمل بقوانين هذا الشأن ، ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها " (٢) وينبغى على الباحث أن يعوّل على قواعد الصحة ، سواء فى الكفاءة الذاتية ، أم فى الجمل الأصولية أم فى الصحة القاعدية ، حيث يقول : " ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ، ثبت أن الحكم كذلك فى مزيته والفضيلة التى تعرض فيه ، وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخى معانى هذا العمل وأحكامه فيما بين الكلم . (٣)

ويقدم الجرجانى مجموعة من الأبيات الشعرية ، يؤكد فيها توفر عناصر الكفاءة الذاتية التى تمكن صاحبها من أن ينشئ جملاً أصولية ، تراعى فى ذات الوقت الصحة القاعدية ، وذلك فى تعليقه على قول البحترى :

بَلَونْا ضَرَائبَ مَنْ قَدْ نَرَىَ   فَما إنْ رَأيْنا لِفَتْح ضَرِيبَـا

هُو المرءُ أبْدَتْ لَهُ الْحَدِثَـا   تُ عَزْماً وَشِيكا ورأياً صلِّيباً

تنقّل فى خُلُقىْ سـؤدد   سماحاً مُرجىً وَبَأْساً مهيباً

فكالسيّف إنْ جئته صارخاً   وكالْبحْرَ إنْ جئته مستثيبـا

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٤

(٢) دلائل الإعجاز ٨٤

(٣) دلائل الإعجاز ٨٤

نجده يعلق على هذه الأبيات بقوله : " فإنك تَعْلَم ضرورة أن ليس إلا أنه قدَّم وأخرَّ وعرَّف ونكرّ ، وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التى تقتضيها علم النحو" [1]

لقد أجاد عبد القاهر أيما إجادة ، عندما جعل النظم ، وهو ما ييطلق عليه ؛ البنية العميقة فى النظرية التوليدية التحويلية ، جعله يقتضى فى نظمه آثار المعانى، وترتُّبها على حسب ترتُّب المعانى فى النفس ... ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك ، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضع عِلَّةٌ تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح[2]

ويعمد عبد القاهر إلى توضيح مفهوم النظم الحقيقى بقوله : " أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه ، دون أن يكون الغرض ترتيب المعانى فى النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حذوها . لكان ينبغى أن لا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسان بتوالى الألفاظ فى النطق إحساساً واحداً . ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئاً يجهله الآخر . " [3] فهو إن كان يبين أن التركيز الحقيقى ، ينبغى أن يتمثل فى الوصول إلى البنية العميقة ، وأن يراعى المتكلم قواعد صحتها ، المتمثلة فى القدرة الكامنة فى أذهان أصحابها . إلا أنه يؤكد أهمية قدرة المتكلم على صياغة البنية السطحية ، وفقاً لقواعد الكفاءة فى البنية العميقة ، فهو إذن يولى اهتماماً جلياً بما نطلق عليه فى النظرية التوليدية التحويلية بالحدس اللغوى ، الذى يعد الموجه الأول للتفسير الدلالى من حيث اتصاله بجوهر التركيب ، والإمكانات التفسيرية المتصلة بالصورة التجريدية . يذكر ذلك عبد القاهر قائلاً : " وأوضح من هذا كله ، وهو أن هذا "النظم" الذى يتواضعه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله ، صنعةٌ يستعان عليها بالفكرة لا محالة ، وإذا كانت مما

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٥

(٢) دلائل الإعجاز ٤٩

(٣) دلائل الإعجاز ٥١

يستعان عليها بالفكرة ويستخرج بالروية ، فينبغى أن ينظر فى الفكر بماذا تلبَّس ؟ أبالمعانى أم بالألفاظ ؟ فأى شئ وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعانى والألفاظ ، فهو الذى تحدث فيه صنعتُك ، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك . [1]

لقد حسم عبد القاهر ، قضية ربط النحو بالدلالة ، وبين أهمية هذا الربط ، وضرورة اعتماد المكون التركيبى على المكون الدلالى ، تلك العلاقة التى تأخرت النظرية التوليدية التحويلية فى إداركها ، ومعرفة أهميتها . إلى ظهور كتاب تشومسكى الثانى " مظاهر النظرية النحوية " والذى ظهر بعد كتابه الأول بعشر سنوات . حيث أدرك تشومسكى ضرورة إدخال المكون الدلالى ، باعتباره مكوناً تفسيرياً ، من أجل إلقاء الضوء على المكونات التركيبية : التى يحدث فيها خرق فى قواعد تصنيفها الجزئى ، بخروجها عن قواعدها المألوفة ، وصورها البنائية المألوفة . من أمثلة التركيب المجازية على شتى أنواعها ، والتراكيب الملبسة التى تحتمل أكثر من مدلول واحد ، فى بنيتها السطحية . لقد حسم عبد القاهر هذه المسألة ، بضرورة الربط بين النحو والدلالة حيث نجده يثير تساؤلاً يقول فيه : "فإن قيل : النظم ، موجود فى الألفاظ ، على كل حال ، ولا سبيل إلى أن يعقل الترتيب الذى تدعمه فى المعانى ، ما لم تنتظم الألفاظ ، ولم ترتبها على الوجه الخاص " [2] ويقدم عبد القاهر رأى القائلين بأهمية التركيب دون الدلالة ، كما يقدم رأى القائلين بأهمية الدلالة دون التركيب " قيل إن هذا هو الذى يعيد هذه الشبهة جذعةً أبداً (جديداً) والذى يحلها ، أن تنظر : أتتصور أن تكون معتبراً مفكراً فى حال اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله . وأن تقول: هذه اللفظة إنما صلحت لكونها على صفة كذا . أم لا يعقل أن تقول : " صلحت ههنا لأن معناها كذا ولدلالتها على كذا ، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا ، ولأن معنى ما قبلها يقتضى معناها ؟ [3]

وهو يعلق على الرأيين ، مؤكداً ضرورة الاهتمام بالأمرين معاً قائلاً : " فإن تصورت

(١) دلائل الإعجاز ٥١

(٢) دلائل الإعجاز ٥١

(٣) دلائل الإعجاز ٥٢

الأول ، فقل ما شئت ، واعلم أن كل ما ذكرناه باطـــل ، وإن لم نتصـــور إلا الثانى ، فلا تخدعنَّ نفسك بالأضاليل ، ودع النظر إلى ظواهر الأمور ، واعلم أن ما ترى أنه لابد منه من ترتُّب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ، ليس هو الذى طلبته بالفكر ، ولكنه شئ يقع بسبب الأول ضرورة ، من حيث إن الألفاظ أوعية للمعانى . فإنها لا محالة تتبع المعانى فى مواقعها ، فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً فى النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً فى النطق، فأما أن نتصور فى الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعانى بالنظم والترتيب، وإن يكون الفكر فى النظم الذى يتواضعه البلغاء فكراً فى نظم الألفاظ ، وأن تحتاج بعد ترتيب المعانى إلى فكر تستأنفه لأن تجئ بالألفاظ على نسقها فباطلٌ من الظن ، ووهم يتخيل إلى من لا يوفى النظر حقه ، وكيف تكون مفكراً فى نظم الألفاظ ، وأنت لا تعقل لها أوصافاً وأحوالاً ، إذا عرفتها عرفت أن حقها أن تُنظم على وجه كذا [1]

ثم يخلص عبد القاهر من ذلك بنتيجة مفادها " أنه لا يُتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ترتيباً ونظماً ، وأنك تتوخى الترتيب فى المعانى وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك، أتبعتها الألفاظ ، وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً فى ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق . [2]

ونستطيع أن نقرر بأن عبد القاهر ، قد أولى الجانب الدلالى الأهمية ، التى أولاها للتركيب النحوى ، وأن كليهما فى الميزان راجحان ، ولا ينبغى أن ننسب الواحد منهما فضلاً أو تميزاً على الآخر ، فهما يتضافران من أجل الوصول إلى النظم البليغ !

ومن ثمَّ ، فإن إدراك عبد القاهر لأهمية الجانب الدلالى ، لم يكن إدراكاً بأهميته التفسيرية باعتباره مكونا تفسيرياً فحسب ، كما يذكر ذلك تشومسكى ، بل إدراك بأهميته

---

(١) دلائل الإعجاز ٥٢ - ٥٣

(٢) دلائل الإعجاز ٥٣ - ٥٤

باعتباره نداً مماثلاً للتركيب النحوى . " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم فى الكلم ولا ترتيب حتى يُعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذا السبب من تلك . [١]

ولعل إدراك عبد القاهر بأهمية المكون الدلالى ، جعله يأتى به على وجه من التفصيل ، مبيناً أنواعه المختلفة التى يكون عليها فى التركيب العربى . حيث يقول: " فالاسم يتعلق بالاسم ، بأن يكون خبراً عنه ، أو حالاً منه ، أو تابعاً له صفة أو تاكيداً أو عطف بيان أو بدلاً أو عطفاً بحرف ، أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثانى أو بأن يكون الأول يعمل فى الثانى عمل الفعل ، ويكون الثانى فى حكم الفاعل له ، أو المفعول ، وذلك فى اسم الفاعل كقولنا : " زيدٌ ضاربٌ أبوه عَمْراً ، وكقوله تعالى : ﴿ أَخْرِجْنَا مِن هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء ٥/٧٥) واسم المفعول كقولنا : زيدٌ مضروب غلمانُه " وكقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ ﴾ (هود (١٢/ ١٠٥) والصفة المشبهة كقولنا : " زيدٌ حَسن وجْهُهُ ، وكريمٌ أصلُه ، وشديدٌ ساعدُه " والمصدر : كقولنا : " عجبت من ضرب زيد عمراً " وكقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ (البلد ٣٠ / ١٤ – ١٥) وبأن يكون تمييزاً قد جَلاَّه منتصباً فى تمام الاسم ، ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة وذلك بأن يكون فيه نون تثنية ، كقولنا : " قفيزان براً ، أو نون جمع كقولنا : " عشرون درهماً " أو تنوين كقولنا : " راقودٌ خلاً " و " مافى السماء قدر راحة سحاباً " أو تقدير تنوين كقولنا : " خمسة عشر رجلاً " أو يكون قد أضيف إلى شئ فلا يمكن إضافته مرة أخرى ، كقولنا : " لى ملؤه عسلاً ، وكقوله تعالى : ﴿ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً ﴾(آل عمران ٤/٩١) [٢]

---

(١) دلائل الإعجاز ٥٥

ولعل عبد القاهر وهو يركز على أهمية الجانب الدلالى ، إنما يتفق مع علماء هذا الاتجاه ؛ الذى يطلق عليه : الدلالة التوليدية generative semantics ، هؤلاء الذين يمثلون التحدى الحقيقى للنظرية الأصلية عند تشومسكى ، أو لعله قريب من وجهة نظرهم ، التى ترى أن القدرة التوليدية generative capacity للقواعد النحوية ، تتمثل فى القواعد الدلالية ، وأن تحديد المعنى ومعرفته ، شرط فى معرفة العلاقة المسلم بها بين القواعد التحويلية والتركيب العميق ، وهم إذ يفعلون ذلك إنما يتخذون من المادة دليلاً يهتدون به فى معرفة الصلات النحوية . انظر : نظرية تشومسكى اللغوية ١٧٩ – ١٨٨

(٢) دلائل الإعجاز ٤ –٥

أما تعلق الاسم بالفعل ، فبأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً ، فيكون مصدراً قد انتصب به كقولك : " ضربت ضرباً " ويقال له : " المفعول المطلق " أو مفعولاً به كقولك : " ضربت زيداً " أو ظرفاً مفعولاً فيه ، زماناً أو مكاناً ، كقولك : " خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك " أو مفعولاً معه ، كقولنا : " جاء البرد والطيالسة " و"لو تُركتْ الناقة وفصيلَتها لرضعها " أو مفعولاً له كقولنا : " جئتك إكراماً لك ، وفعلت ذلك إرادة الخير بك وكقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يفعل ذَلِكَ ابتَغاءَ مَرْضاة اللّه ﴾ (النساء ٥/١١٤) وبأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول، وذلك في خبره كان " وأخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام . مثل : " طاب زيدٌ نفساً " وحسن وجهاً وكرم أصلاً " ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك : " جاءني القوم إلا زيداً " لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام . [1]

وأما ما تعلق الحرف بهما . فعلى ثلاثة أضرب :

أحدهما : أن يتوسط بين الفعل والاسم ، فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تُعدّي الأفعال إلى مالا يتعدى إليه بأنفسها من الأسماء ، مثل أنك تقول: " مررت " فلا يصل إلى نحو : " زيد " وعمرو " فإذا قلت : " مررت بزيد ؛ أو على زيدٍ " وجديه قد وصل بالباء " أو " على " وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى : " مع " في قولنا : لو تركتْ الناقة وفصيلَتها لرضعها " بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم وإيصاله إليه ، إلا أن الفرق أنها لا تعمل بنفسها شيئاً ؛ ولكن تعين الفعل على عمله النصب . وكذلك حكم " إلا " في الاستثناء فإنها عندهم بمنزلة هذه " الواو " الكائنة بمعنى " مع " في التوسط ، وعمل النصب في المستثنى للفعل ولكن بوسطاتها وعون منها .

والضرب الثاني : من تعلق الحرف بما يتعلق به " العطف " وهو أن يدخل الثاني في عمل الأول كقولنا : " جاءني زيد وعمرو " و" رأيت زيداً وعمراً " و" مررت بزيد وعمرو " .

والضرب الثالث : تعلق بمجموع الجملة ، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه وذلك أن من شأن هذه المعاني أن تتناوله بالتغيير ، وبعد أن يسند

---

(١) دلائل الإعجاز ٥ – ٦

إلى شئ [١]

معنى ذلك : أنك إذا قلت : "ماخرج زيدٌ " و " مازيدٌ خارج " .لم يكن النفى الواقع بها متناولاً الخروج على الإطلاق ، بل الخروج واقعاً من " زيد " ومسنداً إليه. ولا يَغُرَّنَّك قولنا فى نحو : " لا رجل فى الدار " إنها لنفى الجنس ، فإن المعنى فى ذلك أنها لنفى الكينونة فى الدار عن الجنس ولو كان يتصور تعلق النفى بالاسم المفرد ، وكان الذى قالوه فى كلمة التوحيد من أن التقدير فيها " لا إله لنا أو فى الوجود ، إلا الله " فضلاً من القول ، وتقديراً لما يحتاج إليه ، وكذلك الحكم أبداً "[٢]

وإذا قلت : " هل خرج زيدٌ ؟ " لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقاً ، ولكن عنه واقعاً من : " زيد " وإذا قلت : " إن يأتنى زيدٌ أكرمه " لم تكن جعلت الإتيان شرطاً ، بل الإتيان من " زيد " وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاءً للإتيان ، بل الإتيان واقعاً منك، كيف ؟ وذلك يؤدى إلى أشنع ما يكون من المحال، وهو أن يكون ها هنا إتيان من غير آتٍ ، وإكرام من غير مكرم . ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاءً [٣]

ليس من شك ، فى أن عبد القاهر وهو يستعرض لنا على هذا النحو من التفصيل الشافى الوافى لنماذج التعليق وأمثلته فى العربية ، إنما يدل على اقتدار هذا الرجل العالم المتمكن ، الذى أدرك بفطنته وذكانته العلاقة الوثيقة بين المكون الدلالى والبنية العميقة فى التراكيب النحوية وأن ما قدمه من أمثلة ونماذج للتعليق بين الاسم والاسم . ما كان يمكن الوقوف البته فيها على دلالاتها الحقيقية ، إلا من خلال الوقوف على البنية العميقة الحقيقية للتراكيب المذكورة .

وما كان يمكن استقامة تلك التراكيب وصحتها فى بنيتها السطحية ، إلا من خلال التأويل الدلالى الصحيح .

---

(١) دلائل الإعجاز ٦
(٢) دلائل الإعجاز ٧
(٣) دلائل الإعجاز ٧

وبنفس درجة تمكنه وإحاطته فى إلقاء الضوء على الأبنية السطحية التى حصرها من صور تعلق الاسم بالاسم ، يقدم لنا – أيضاً – حصراً كاملاً لصور تعلق الاسم بالفعل ، مبيناً أن تفسير النماذج التى ذكرها فى بنيتها السطحية ، لا يتم بحال من الأحوال ، الا من خلال الرجوع إلى المكون الدلالى ، الذى يرتبط ارتباطاً مباشراً بالبنية العميقة للتركيب .

كما يقدم – كذلك – تفسيرات جديرة بالاعتبار ، ويقف المرء أمامها مبهوراً ، عندما يلجأ إلى المكون الدلالى ، لكى يقدم لنا تفسيراً للأبنية السطحية من الأمثلة والنماذج التى ذكرها ، وأن هذا المكون يلجأ إلى البنية العميقة من أجل الوقوف على حقيقة تعلق الحرف بكل من الاسم والفعل وماهو التفسير الدلالى الصحيح لمثل هذا التعلق .

إن نظرة فاحصة مدققة إلى الأمثلة والنماذج السابقة من التعليق على اختلاف صورها لتدل دلالة قاطعة . على إدراك عبد القاهر ، لأهمية المكون الدلالى ، وما يقدمه من تأويلات وتفسيرات وتوضيحات على التركيب ، وأنه شديد الصلة بالبنية العميقة ، التى تمده بالتأويلات الدلالية .. هذه الخطوة الفذة ، التى لم يدرك تشومسكى حقيقتها إلا بعد سنوات من ظهور كتابه الأول .. كما أنه لم يدرك مدى فاعلية المكون الدلالى ، وقدرته على التعامل مع نماذج من البنية السطحية ، إلا بعد عشر سنوات أخرى ، بعد ظهور كتابه : خواطر حول اللغة Reflection on language والذى كان بداية لتحلل تشومسكى من الاعتماد على التراكيب العميقة ، حيث لم تعد المكونات الدلالية مقتصرة فى عملها على التركيب العميق وحده ، بل أصبحت تتعامل – أيضاً– مع بعض التراكيب السطحية . " إن اتساع آفاق فكرة التركيب السطحى مناسب يكفى لإدراك دلالة الجمل ومعانيها عن طريق تطبيق القواعد المفسرة ، ومن أبرز هذه التراكيب التى استوجب هذا التعديل الجديد ، التراكيب المتعلقة بمسائل الابتداء Focus والكمى quantificateie والنفى وبعض الظروف even, only وبعض الأفعال المساعدة [(١)]

ونستطيع أن نؤكد أن الإضافات والتعديلات التى قام بها تشومسكى ، ومايزال وكذلك

---

(١) مباحث فى النظرية الألسنية ١١٨

ما يقوم بها زملاؤه وتلامذته هذه الإضافات وتلك التعديلات ، إنما جاءت لتعالج القصور الناتج عن عدم إدراج المكون الدلالي في أول الأمر ! ولا غرابة أن يقول تشومسكي : " هناك شعور عام بأن الدلالة هي ذلك الجانب العميق أو الهام من اللغة ، وأن دراسة هذا الجانب الدلالي بما له من صلة في فهم الدلالات العميقة من اللغة وإدراكها ، هو الذي يضفي على الدراسة اللغوية هذا الطابع المتميز والمميز . [١]

أما القواعد التحويلية ، ودورها الهام في إلقاء الضوء على الأبنية السطحية للتراكيب النحوية المنطوقة ، تلك القواعد الفاعلة ؛ والتي تستعين في عملية التحويل للأبنية العميقة ، بالمكونات التركيبية والدلالية والفونولوجية ، لم تكن هذه القواعد بعيدة عن إدراك عبد القاهر حيث عرضها في كتابه القيم : دلائل الإعجاز " وبين دورها الفعال ، في القاء الضوء على التراكيب النحوية . فلقد عرض باقتدار لقواعد التقديم ، ذاكراً أن ذلك : " باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن واسع التصرف ، بعيد الغاية " ويبين أن التقديم يأتي على وجهين :

الأول : تقديم يقال على نية التأخير ، وذلك في كل شئ أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه : وفي الجنس الذي كان فيه ، كخبر المبتدأ ، وإذا قدمته على المبتدأ ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل ، كقولك : " منطلق زيدٌ " و : ضرب عمراً زيدٌ " ومعلوم أن " منطلق " و«عمراً » ، لم يخرجا بالتقديم ، عما كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ ، ومرفوعاً بذلك ، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله ، كما يكون إذا أخرت .

الثاني : وتقديم لاعلى نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشئ من حكم ، وتجعل له باباً غير بابه ، وإعراباً غير إعرابه . [٢]

---

(١) نظرية تشومسكي اللغوية ٢٠٠.

(٢) دلائل الإعجاز ١٠٦ وما بعدها .

كما قدّم ابن السراج حصراً للمواضع التي لا يجوز فيها التقديم وجعلها في ثلاثة عشر موضعاً وهي :

١ - تقديم الصلة على الموصول لأنها كبعضه .

٢ - الصفة والبدل والعطف : " ولا يجوز أن يتقدم ما بعد حرف العطف عليه ، وكذلك ما اتصل به ، والذين أجازوا من ذلك شيئاً ، أجازوه في الشعر ، ولو جعلنا ما جاء في ضرورات الشعر أصولاً لزال الكلام عن جهته ، فقدموا حرف النسق مع المنسوق به على ما نسق عليه وقالوا : إذا لم يكن شئ يرفع لم يجز تقديم الواو والبيت الذي أنشدوه للأحوص : (الوافر) =

كما يعرض لقواعد الحذف ، ويذكر أنها تكون إجبارية ، وتكـــون اختياريـــة ، "فإنك ترى

= آلا يانخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

فإنما جاز عندهم ، لأن الرافع في مذهبهم ،" عليه " وقد تقدم ، ولا يجيزون للشاعر إذا اضطر أن يقول إن وزيداً عمراً قائمان "

٣- المضاف إليه : " ولا يجوز أن تقدم على المضاف ، ولا ما اتصل به ، ولا يجوز أن تقدم عليه نفسه ما أتصل به ، فتفصل به بين المضاف والمضاف إليه ، إذا قلت : هذا يوم تضرب زيداً ، ولم يجز أن تقول : " هذا زيداً يوم تضرب " ولا " هذا زيداً تضرب "

أما قول الشاعر : (السريع)

لله در اليوم من لامها

وقوله : (الوافر)

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودى يقـــارب أن يزيل

" فزعموا أن هذا لما اضطر فصل بالظرف : لأن الظروف تقع مواقع لا تكون فيها غيرها "

ويعلق الخليل على ذلك بقوله : أى بكف يهودى . قال الله تعالى : ﴿ زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ (الأنعام ٦/ ١٣٧) فرق بين المضاف والمضاف إليه . قال ذو الرمة :(البسيط)

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس أصوات الفراريج

أراد : كأن أصوات أواخر الميس .

وقال آخر : (الطويل)

وقد زعموا أني جزعت عليهمـــا وهل جزع أن قلت : وابأباهما

هما أخوا في الحرب من لا أخاله إذا خاف يوماً نبوة فدعاهمـا

يعنى : أخوا من لا أخاله ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه .

٤ – الفاعل .

٥ – الأفعال التى لا تتصرف .

٦ – ما أعمل من الصفات تشبيهاً بأسماء الفاعلين وعمل عمل الفعل .

٧ – التمييز .

٨ – العوامل في الأسماء والحروف التى تدخل على الأفعال .

الأول من ذلك : ما يدخل على الأسماء ، ويعمل فيها . فمن ذلك حروف الجر ،. ولا يجوز أن يقدم عليها ما عملت فيه ، ولا يجوز أن يفرق بينها ، وبين ماتعمل فيه ، ولا يجوز أن يفصل بين الجار والمجرور حشواً إلا ما جاء فى ضرورة الشعر...

وأما الحروف التى تدخل على الأفعال ، فلا يتقدم فيها الأسماء ، وهى على ضربين : حروف عوامل وحروف غير عوامل"

٩ – الحروف التى تكون صدر الكلام .

١٠ – التفريق بين العامل والمعمول فيه بما ليس للعامل فيه سبب وهو غريب منه .

١١ – تقديم المضمر على الظاهر فى اللفظ والمعنى .

١٢ – التقديم إذا ألبس على السامع أنه مقدم .

١٣ – إذا كان العامل معنى الفعل ولم يكن فعلاً .

وقد أورد ابن السراج هذه المسائل على نحو تفصيلى ، وقد بين بوضوح ما يمكن أن يطرأ على كل مسألة منها من تحويلات وتغييرات ، مع عرض لوجهات نظر العلماء والنحاة انظر الأصول فى النحو ٢ / ٢٢ – ٢/ ٢٥٤

وانظر : الجمل فى النحو ، المنسوب للخليل بن أحمد ٣٨ وانظر : كتب : الضرورة الشعرية

به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك تنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبنْ ، ويذكر الحذف الإجبارى بقوله : " ومما يُعلم أن ليس فيه لغير الحذف وجه ، قول طرفة : (الطويل)

إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنى بِأجْزَاعِ بيشــةٍ   أو الزُّرقِ من تَثْلِيثَ أو بِيَلَمْلَمــا

مُطوَّقة وَرْقاءَ تَسْجَــعُ كلمـا   دَنَا الصيْفُ وانجابَ الرَّبيعُ فأنْجَما

وقول البحترى : (الطويل)

إِذا شَاءَ غَوِى صِرْمَةٌ أو غدا عَلَى   عَقَائل سِرْبٍ أو تقصّى رَبْرَبــا

وقوله : (الكامل)

لو شِئْتَ عُدْتَ بلادَ نَجْـدٍ عَودةً   فَحَلَلْتَ بَــين عَقِيقــه وَزَرُوْدِهِ

معلوم أنك لو قلت : " وإن شئتُ أن لا تُرقل لم ترقل " أو قلت : " لو شئت أن تعود بلاد نجد عودة عدتها " أذهبت الماء والرّونق ، وخرجت إلى كلام غثٍّ ولفظ رثّ[1]

وهو يذكر – أيضاً – أهمية الزيادة ، فيقول : " وإذا عرفت هذا ، فإن هذا المعنى بعينه قد أوجب فى بيت ذى الرُّمة أن يضع اللفظ على عكس ما وضعه البحترى ، فيعمل الأول من الفعلين ، وذلك قوله : (الوافر)

وَلَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بِشِعْرِى   لَئِيماً أَنْ يكونَ أصابَ مَالا

أعملَ " لم أمدح " الذى هو الأول ، فى صريح لفظ : " اللئيم " و " أرضى " الذى هو الثانى فى ضميره وذلك لأن إيقاع نفى المدح على اللئيم صريحاً والمجئ به مكشوفاً ظاهراً : هو الواجب من حيث كان أصل الغرض ، وكان الإرضاء ، تعليلاً له " ثم يقول موضحاً : ولو أنه قال : " ولم أمدح لأرضىَ بشعرى لئيماً لكان يكون أبْهم الأمر فيما هو الأصل وأبانه فيما ليس بالأصل " [2]

---

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦ وما بعدها .   (٢) دلائل الإعجاز ١٧٠

ويوضح عبد القاهر – أيضاً – أهمية الزيادة بصورة أوضح فيقول . " ولهذا الذى ذكرنا من أن للتصريح عملاً ، لا يكون مثل ذلك العمل للكناية ، كان لإعادة اللفظ فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء ١٧ / ١٠٥) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص ١١٢ / ١-٢) من الحسن والبهجة ، ومن الفخامة والنبل ، مالا يخفى موضعه على بصير . وكان لو تُرك فيه الإظهار إلى الإضمار فقيل : " وبالحق أنزلناه وبه نزل " و " قل هو الله أحد هو الصمد " لعدمت الذى أنت واجده الآن " (١)

وإذا كان عبد القاهر الجرجانى ، هو الفارس المجلى – حقا – فى ميدان النحو التحويلى ، على النحو الذى أكدناه ، من إدراكه للعديد من الأسس والمنطلقات ، التى اعتمدتها النظرية التوليدية التحويلية سواء عند تشومسكى رائدها وصاحبها أم عند تلا مذته وزملائه .

فإن سيبويه ، العالم النحوى الجليل ، صاحب أول عمل نحوى متكامل يصل إلينا ، وبالرغم من كونه يمثل مرحلة النشأة والتكوين لهذا العلم العربى ، وأن النشأة من شأنها أن يعتورها شئ من القصور ، أو عدم الوضوح ، فإن الذى لا شك فيه أن كتاب " سيبويه " قد جاءنا فى صورة مثلى ، وعلى درجة عليا من درجات الرقى العلمى ، ولا ينبغى أن نصدر أحكاماً مجحفة ، تصمُ هذا العمل الجليل بالصعوبة أو بعدم المنهجية والاتساق ! متعللين بأنه يمثل البداية التى من شأنها أن تأتى على نحو من عدم الوضوح والاكتمال . (٢)

إن إعادة قراءة الكتاب ، فى ضوء مناهج البحث اللغوى الحديث ، أمر ضرورى ، بل واجب علمى ، تتطلبه ضرورات التقديم لهذا التراث العربى الذاخر .

ينبغى إذن على علمائنا وباحثينا ، أن يتوقفوا مليًّا أمام هذا الصنيع ، وأن

---

(١) دلائل الإعجاز ١٧٠

(٢) لا ينكر فضل هذا الكتاب وأثره ، إلا جاحد ، فقد نال الكتاب إعجاب القدماء والمحدثين من العلماء اللغويين والنحاة ، ولا يتسع المجال لذكر أقوال العلماء وتقريظهم وثنائهم على الكتاب وصاحبه ، فقد ضمنه سيبويه مستويات الدراسة اللغوية من أصوات وأبنية وتراكيب ، على نحو من الإتقان والإحكام

يستخلصوا من تقسيماته ومصطلحاته ، مقاصدها الأساسية ومعانيها الجوهرية . التى تشير إليها ، وكيف أنها لا تختلف فى كثير من مقاصدها عن سواها من التصنيفات والتقسيمات التى تقدمها المناهج اللغوية الحديثة .

فإن موازنة فاحصة مدققة بين ما ذكره سيبويه عن استقامة الكلام واستحالته فى باب عقده لذلك سماه : " باب الاستقامة من الكلام والإحاطة " [1] الذى يقسمه إلى خمسة أقسام قائلاً : " فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وماهو محال كذب"[2] ثم يمثل لهذه الأقسام الخمسة بقوله:

١ – فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمسِ ، وسآتيك غدا .

٢ – وأما المحال ، فأن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسآتيك أمس.

٣ – وأما المستقيم الكذب ، فقولك : حملتُ الجبل ، وشربت ماء البحر ونحوه .

٤ – وأما المستقيم القبيح : فأن تضع اللفظ فى غير موضعه ، نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وكى زيداً يأتيك ، وأشباه هذا .

٥ – وأما المحال الكذب ، فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمسِ [3]

لقد جعل سيبويه الكلام المستقيم ثلاثة أقسام وهى :

١ – المستقيم الحسن . ٢– المستقيم الكذب ٣ – المستقيم القبيح .

فى حين جعل الكلام المحال فى قسمين اثنين وهما :

١ – المحال . ٢ – المحال الكذب .

فالكلام عنده إذن قسمان اثنان لا ثالث لهما وإن مقارنة فاحصة ، تؤكد لنا بوضوح مدى الصلة بين مصطلحى : الكلام المستقيم ، والكلام المحال عند سيبويه ، وبين

---

(١) الكتاب ١/ ٢٥

(٢) الكتاب ١/ ٢٥

(٣) الكتاب ١/ ٢٥-٢٦

مصطلحى:الكلام الأصولى . والكلام غير الأصولى عند تشومسكى .

ولكننا لا نعدم إلى جانب هذين المصطلحين الأساسيين ، وجود مصطلحات أخرى ، تتصل بالمصطلحين السابقين ، ويمكن تصنيف هذه المصطلحات إلى مايلى:

١ – جيد.	٢– عربى .	٣ – كثير .
٤ – جائز .	٥ – أقيس .	٦ – غلط .

وتأتى هذه المصطلحات فى الكتاب ، على صور متنوعة من الأوصاف والمسميات، على النحو الآتى :

١ – ففى مصطلح جيد يقول أيضاً : جيد بالغ وأقوى وأجود وأكثر .

٢ – وفى مصطلح عربى يقول أيضاً : عربى جيد ، وعربى حسن ، وعربى جيد حسن ، وعربى جائز وعربى كثير .

٣ – وفى مصطلح كثير يقول أيضاً : أكثر ، وأكثر وعربية كثيرة ، وأكثر وأجود ، والغالب فى كلام الناس ، وأعرف وأكثر : وليس بالكثير ، وقليل ، وأقل ، وقليل خبيث.

٤ – وفى مصطلح جائز يقول أيضاً : جائز بعيد ، وجائز قبيح ، ولم يجز ، لا تقول ، ولم يجز إلا فى الشعر .

٥ – وفى مصطلح غلط يقول أيضاً : خطأ وضعيف وخبيث .

ولا شك أن هذه المصطلحات ، بأوصافها ومسمياتها المختلفة ، تمت بصلة من الصلات بالمصطلحين الأساسيين : الاستقامة والإحالة ، وأنها جميعاً تتعلق بمسألة الاعتماد على الحدس اللغوى .

ويهمنا فى هذا المقام ، أن نؤكد مجموعة من الأمور الهامة ، التى اعتمدها سيبويه أساساً لكون الكلام مستقيماً أو محالاً ، فيما يسمى عند تشومسكى ، بأصولية الكلام وعدم

أصوليته ؛ أو فيما سماه سيبويه : عربياً أو جيداً أو كثيراً أو غيرها من المصطلحات التى يعتمد فيها الباحث أو العالم اللغوى على الحدس اللغوى ، أو التخمين الصحيح لدى تشومسكى أيضاً .

وإن تحليلاً لعناصر الجمل التى أوردها سيبويه ، يؤكد – لنا – أن هذه الجمل يتوافر لها أسباب أصوليتها وغير أصوليتها من جانب ، وأسباب مقبوليتها وعدم مقبوليتها من جانب آخر .

– ففى قوله : " أما المستقيم الحسن فقولك ، أتيتك أمس ، وسآتيك غداً " .[1] فإن الجملتين السابقتين : ١ – أتيتك أمس ، ٢ – سآتيك غداً ، جملتان أصوليتان ، جاءتا متناسبتين ومتوافقتين مع القواعد التركيبية ؛ التى تحكم العلاقة بين الفعل والظرف فى اللغة العربية ، حيث جاء الفعل الماضى : " أتى " مع الظرف : " أمس " الدال على الزمن الماضى، فى حين جاء الفعل المستقبل : " سآتيك " مع الظرف: " غداً " الدال على الزمن المستقبل أيضاً ، مراعياً قواعد التصنيف الجزئى الخاصة بصحة التركيب نحوياً، والسمات الانتقائية، المتعلقة بالصحة الدلالية والفونولوجية.

– وفى قوله : " وأما المحال ، فأن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسآتيك أمس " [2] فإن الجملتين السابقتين : ١ – أتيتك غداً . ٢– سآتيك أمس ، جملتان غير أصولتين ؛ لأنهما تفتقدان عناصر المناسبة والموافقة مع القواعد التركيبية ؛ التى تحكم العلاقة بين الفعل والظرف فى اللغة العربية ، فليس ثمة تناسب أو توافق بين الفعل الماضى: " أتى " والظرف الدال على الزمن المستقبل : " غداً" وبين الفعل المستقبل : " سآتيك " والظرف الدال على الزمن الماضى : " أمس " وذلك لأن صياغة الجملتين السابقتين ، قد خرقت قواعد التصنيف الجزئى ؛ التى تتضمن صحة التركيب النحوى . كما اختلت بالتالى قواعد الإسقاط الدلالية والفونولوجية !

---

(١) الكتاب ١/ ٢٥

(٢) الكتاب ١/ ٢٥

– أما قوله : " وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه"[1]

– وقوله : " وأما المحال الكذب ، فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس"[2] فإن الجمل الثلاث السابقة : ١– حملت الجبل . ٢– شربت ماء البحر . ٣– سوف أشرب ماء البحر أمس .

هذه الجمل جميعها جمل غير مقبولة . غير أن الجملتين الأوليين جملتان تتوافر لهما عناصر الأصولية ، من حيث التماسك والتوافق بين عناصر الجملة فيهما . غير أنهما غير مقبولتين من حيث دلالتهما ! فالجملتان راعتا قواعد التصنيف الجزئي في التركيب النحوي، في حين نجدهما وقد انتقضتا قواعد الإسقاط الدلالية والسمات الانتقائية .

أما الجملة الثالثة ، فهي جملة غير مقبولة ، وغير أصولية في آن ، لأنها تفتقد إلى عناصر المقبولية والأصولية ، فبالرغم من مراعاتها قواعد التصنيف الجزئي إلا أنها تفتقد لعناصر الكفاءة اللغوية الصحيحة كما أنها تمثل إخلالاً بقواعد الإسقاط الدلالية والسمات الانتقائية .

– أما قوله : " وأما المستقيم القبيح ، فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وكي زيداً يأتيك ، وأشباه ذلك . "[3] .

فالجملتان السابقتان : ١– قد زيداً رأيت . ٢– كي زيداً يأتيك . جملتان أصوليتان غير أنهما قبيحتان ، فليس ثمة تناسب أو توافق بين عناصرهما التركيبية في قواعد الكلام العربي النثري ! بيد أن قواعد التركيب في الشعر العربي ، تسمح بذلك على سبيل الضرورة الشعرية ، وقد ذكر ذلك سيبويه في قوله : " وذلك أن من الحروف حروفاً ، لا يذكر بعدها إلا الفعل ، ولا يكون الذي يليها غيره ، مظهراً أو مضمراً ، فمما لا يليه الفعل إلا مظهراً : قَدْ وسوف ، ولّما ، ونحوهن . فإن اضطر شاعر فقدم الاسم ، وقد أوقع الفعل على شئ من سببه لم يكن حد الإعراب إلا بالنصب وذلك نحو : لم زيداً أضربه ، [إذا اضطر شاعر فقدّم

---

(١) الكتاب ١/ ٢٦

(٢) الكتاب ١/ ٢٦

(٣) الكتاب ١/ ٢٦

لم يكن إلا النصب فى زيد ليس غير ، لو كان فى شعر] لأنه يضمر الفعل إذا كان ليس مما يليه الاسم كما فعلوا ذلك فى مواضع ستراها إن شاء الله ... فإن قلت : هل زيداً رأيت ، وهل زيّد ذهب ، ولم يجز إلا فى الشعر ، لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل ، فإن اضطر شاعر فقدم الاسم نصب ، كما كنت فاعلاً ذلك بقد ونحوها ... [1] وكذلك قوله:" واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم : لو قلت : هل زيدٌ قام ، وأين زيد ضربته ، ولم يجز إلا فى الشعر ، فإذا جاء فى الشعر نصبته ، إلا الألف ، فإنه يجوز فيها الرفع والنصب ، لأن الألف ، قد يبتدأ بعدها الاسم . فإن جئت فى سائر حروف الاستفهام باسم وبعد ذلك الاسم اسم من فعل نحو : ضارب ، جاز فى الكلام ؛ ولا يجوز فيه النصب إلا فى الشعر ، لو قلت : هل زيدٌ أنا ضاربه، لكان جيداً فى الكلام ، لأن ضارباً اسم وإن كان فى معنى الفعل ، ويجوز النصب فى الشعر . [2]

ولعلنا فلحظ مدى اعتماد سيبويه على المكون الدلالى فى المصطلح : المستقيم الكذب ، فعدم مقبولية هذا المصطلح راجع إلى الإخلال بقواعد الإسقاط الدلالية والسمات الانتقائية.

" ومع ذلك نلاحظ أن سيبويه ، يعتبر الكلام المستقيم الكذب ، كلاماً مستقيماً قبل أن يكون كذباً ، ومن ثم لا يعود ويذكر هذا الصنف من الكلام فى كتابهُ ، نستدل من ذلك أن سيبويه قد أقام فى مجال تحليل اللغة ، فاصلاً واضحاً بين الدلالة والنحو ، واعتبر – بالتالى– أن الدلالة لا تدخل فى تحديد استقامة الكلام، أى أصولية الجمل . [3] .

يدلنا ذلك على أن القدرة التوليدية عنده تعتمد على القواعد النحوية والمكونات التركيبية على عكس ما قررناه عند عبد القاهر ، الذى تؤكد تحليلاته السالف ذكرها ، أنه يجعل القدرة التوليدية للقواعد النحوية معتمدة على القواعد الدلالية ، فى المقام الأول ، ولعل هذا الاختلاف، يرجع إلى الاختلاف بين عالمين ، يهتم أحدهما بالصحة النحوية من أجل صحتها فحسب فيما يهتم الثانى بالصحة النحوية من أجل بيان وجوه البلاغة والفصاحة .

---

(١) الكتاب ١/ ٩٩

(٢) الكتاب ١/ ١٠١

(٣) بحوث ألسنية عربية ٣٢

لقد استقى سيبويه مادته اللغوية ، التى أسس عليها قواعد " الكتاب " من مصادر متنوعة تشتمل على شواهد القرآن الكريم والشعر العربى والأمثال العربية، إلى جانب سماعه عن أفواه العرب ، الذين يثق فى فصاحتهم وبيانهم ، وعدم إنحرافهم عن المستوى الصوابى للغة العربية الفصحى ، فقد أخذ مشافهة عن قبائل تميم وقيس وأسد وبعض طيئ وهذيل .

فسيبويه إذن قد اعتمد على النوعين كليهما : اللذين يمثلان مصدرًا للمادة اللغوية ، وهما : المادة المدونة المكتوبة ، والمادة المنطوقة المسموعة ، وهو فى كليهما ، قد اعتمد على مصادر تمثل — بحق – متكلماً مستمعاً جيداً للغة المراد دراستها وتحليلها .

لقد اعتمد سيبويه إذن ، شأنه في ذلك ، شأن أستاذه الخليل ومن سبقه من علماء اللغة العرب ونحاتهم على مادة لغوية غزيرة ، تمثل – بحق - اللغة العربية الفصحى خير تمثيل ، فقد اعتمد على عينات لغوية عديدة ومتنوعة ، تمتد عبر الزمان والمكان . حيث نجده يستشهد بشعراء من العصر الجاهلى وصدر الإســلام والعصر الأموى ، عبر مساحة زمانية تجاوز الثلاثة قرون ، كما اعتمد على حوالى مائة وخمسين قبيلة وعشيرة عبر المكان . وهو قد انتقاها من بين سائر قبائل العرب، باعتبارها القبائل البدوية ؛ التى احتفظت بفصاحتها وبيانها ، ولم تصب ألسنتها بلحن أو بإنحراف ، ولم تتأثر لغاتهم بأقوام أخرى من غير العرب.

إننا أمام عالم نحوى ، قد أجاد اختيار مادته اللغوية ، معتمداً فيها على حدس العربى الموثوق به ، وليس يعترض على قولنا هذا معترض ، فيقول بأن سيبويه كان يتخير شاهداً نحوياً واحداً أو أكثر لشاعر عربى من قصيدة طويلة ، من بين قصائده المتعددة ، أو أنه كان يتخير جملة أو عبارة أو عدداً محدوداً منهما ممن يسمعها عن أفواه رواته دون سماعه سائر جمله أو عباراته الأخرى العديدة !

فمن المعلوم أن الباحث اللغوى لا يمكنه بحال من الأحوال أن يعتمد على جميع الشواهد والجمل التى ينتجها أصحاب اللغة المعينة ، فهذه الجمل والشواهد مهما تعددت ،

لا تمثل حصراً لهذه اللغة تلك هى وجهة نظر همبولدت ، التى أقرها تشومسكى بقوله ليس من الجديد القول أن اللغة مبنية على أساس نظام من القوانين ، تقرر تأويل جمل اللغة الكثيرة بغير حدود " ويقول أيضاً " إن همبولدت قد عبر عن هذا بشكل واضح قبل ما يزيد عن القرن فى مقدمته لعلم اللغة المشهورة بأن اللغة تستخدم بشكل غير محدود وسائل محدودة ، وأن قواعد اللغة، يجب أن تصنف العمليات التى تجعل هذا ممكناً " (١)

نستطيع أن نذكر أن سيبويه ، قد اعتمد على منهج شامل فى إطار جمعه للمادة اللغوية، يعتمد فيه على أساس مساءلة الحدس اللغوى ، للعربى الفصيح الموثوق بسلامة لسانه وبيانه .

إن اعتماد سيبويه على سليقة العربى السليمة ، هو اعتماد على كفاءة هذا العربى ومقدرته اللغوية الصحيحة ؛ تلك الكفاءة اللغوية ، التى تمثل المعرفة الضمنية لدى المتكلم بقواعد اللغة ، والتى تتيح له إنتاج الجمل على النحو الذى نجده عند تشومسكى ، وأن اعتماده على نطق الأعراب البدو دون سواهم ، هو اعتماد على آدائهم الكلامى ، واعتداده بقواعد هذا الكلام المنطوق والأداء الفعلى الصحيح ، يأتى هذا الاعتماد متفقاً مع ما حدده تشومسكى من قواعد الأداء اللغوى أو الكلام المنطوق ؛ الذى يأتى متفقاً مع قواعد الكفاءة اللغوية ، أو مختلفاً عنه .

إن اعتماد سيبويه فى تصنيفه الكلام ، على أسس نحوية تركيبية ، كما هو الحال عند تشومسكى واتباعه ، أمر لا يخفى على كل ذى نظر وبصر بأراء سيبويه وأقواله ، حيث إن الكلام المستقيم فى نظره ، هو الكلام المركب أو المبنى ، وفق الأصول اللغوية النحوية ، والكلام المحال هو الكلام الذى ينحرف عن الأصول من حيث إن تركيبه أو بناءه لا يراعى القواعد التركيبية النحوية .

---

(١) مظاهر النظرية النحوية ٢٥

-- نظرية العامل بين الخليل وتشومسكى :

حظيت نظرية العامل باهتمام اللغويين المحدثين ، فى الربع الأخير من القرن العشرين، حيث فرضت هذه النظرية نفسها على ساحة الدراسات اللغوية ، بحيث أصبحت النموذج الأمثل ، عند علماء النظرية التوليدية التحويلية . فقد ألف تشومسكى "N. chom- sky" رائد هذه النظرية ومؤسسها عملين هامين ، حول نظرية العامل ، مبيناً أهميتها وفاعليتها فى تحليل التراكيب النحوية ، وإلقاء الضوء عليها .(١)

تنطلق نظرية الربط العاملى عند تشومسكى ، من منطلقين أساسين ، تتسم بهما عناصر التركيب النحوى ، هذان الأساسان هما :

١ - الأثر : " Trace "

٢ - المضمر:" Pronominal "(فى حالة كونه مستتراً وليس له تمثيل صوتى)

أولاً : الأثر : "Trace"

يأتى فى صورة مركباً اسمى ، أو مركب حرفى ، وهو يشتمل على قرنية بالمواضعة "فحينما ننقل مركباً اسمياً فى التبئير مثلاً من مكان المفعول إلى مكان البؤرة (بمعنى : انتقاله من موضع المكمل النحوى إلى موضع المسند إليه) يترك هذا المنقول وراءه ،"مركباً اسمياً يشغل موقعاً لا يزيد عن كونه عنصراً معجمياً ، وليس مكوناً من مكونات التركيب ، يطلق عليه : عجرة : " node " ؛ يزود هذا المركب بقرنية تدل على أنه مربوط إحالياً بالعنصر المعجمى ، الذى انتقل إلى مكان البؤرة ، وبهذا نستطيع المحافظة فى البنية السطحية على العلاقات المحورية – thematic relation عن طريق هذه الآثار .

ثانياً : المضمر " pronominal "(الذى ليس له تمثيل صوتى منطوق)

فإنه يمثل المنطلق الحقيقى ؛ التى يمثل حيقية هذه النظرية ، فهو كما أسلفنا مضمر ، ولكنه من نوع خاص ، لا يملك تمثيلاً صوتياً ، وهو يمثل – لدى تشومسكى . أهمية كبرى

---

(١) العملان هما : 1- Lectures on government and binding , dordrech : foris, 1981.

(2) Some concepts and Consequences of the theory of government and binding, cambridge, M.I.T press, 1982

باعتباره مكوناً كبيراً Major Constituent يظهر فى البنية المكونية Constituont Strue-tureمكان المركبات الاسمية الظاهرة ، إلا أن توزيعه يختلف عن توزيع هذه المركبات الاسمية الملوءة معجمياً ، لأن هذه المركبات يلزمها أن تأخذ علامة إعرابية : بينما هذا المضمر ، ليس معمولاً حتى يمكن أن يظهر فى التركيب فى حالة كونه معرباً ".[1]

ويتميز المضمر "Pronominal " كما يرى تشومسكى ، بأنه يتضمن إمكانية كونه مضمراً من جهة وعائداً " enaphor "من جهة أخرى والمضمر كما هو معلوم ، لا يُربط داخل الجملة. ففى المثالين : ١ – ضربه زيد . ٢ – أعطيت زيداً إياه .

فإن ضمير الغيبة (الهاء ، إياه.) لا يمكن إحالتها على زيد ، لكنه يمكن إحالتهما على مركب غير موجود فى الجملة ، هذه الإحالة ، تسمى بالإحالة المنفصلة disjoint reference " " بمعنى أنها منفصلة عن الإحالات الممكنة داخل الجملة . وميدان الإحالة، هو الجملة أو المركب الاسمى ، أو الإسقاط الأكبر بصــفة أعم ."Maximal projection" أما فى المثال ، ١–دخل زيد مكتبه .

فإنه يمكن إحالة الضمير على : زيد ، لأن ميدان الإحالة المنفصلة ، هو المركب الاسمى: (مكتبه) فالضمير منفصل إحالياً فى المركب الاسمى ، ولكنه حرٌ فى الجملة ، ولذلك أمكن إحالته على : زيد ، هذه الإحالة المنفصلة ، تنطبق على المضمر ، كما تنطبق على الضمير ، ففى المثال : ضربه ، فإن فى الجملة موضوعين : المفعول، وهو الضمير المتصل ، والفاعل : وهو المضمر ، وهذا المضمر لا يمكن أن يشترك إحالياً مع الضمير المتصل (المفعول) فالفاعل هنا لا يمكن أن يكون هو المفعول . وكذلك الشأن مع المصدر ، إذا قلت : أراد قتله .

فإن فاعل القتل هو المضمر ، ومضمر هنا يرجع الى : زيد ، إلا أن الضمير المتصل (الهاء) لا يمكن أن يرجع إلى زيد . والسبب هو أن المضمر والضمير المتصل (الهاء) منفصلان إحالياً [2] ويرى تشومسكى أن المضمر كالضمير فى إمكان وجود مفسر له ،

---

(١) انظر : اللسانيات واللغة العربية ١٧١

(٢) انظر : اللسانيات واللغة العربية ١٧٣

داخل نفس الإسقاط . وبناءً عليه ، يمكن اعتبار المضمر عائداً فى نفس الوقت ، وفى ذلك يقول تشومسكى : " لننظر إلى المضمرات "pronominals " التى بدون محتوى صوتى لاحظوا أنها تشبه الضمائر البارزة فى كونها ليس لها سابق " antecednet " أو مفسراً فى جملها أو فى المركب الاسمى الذى تحتويه . والمضمرات تشبه أيضاً العوائد،لانها ذات مضمون إحالى فى ذاتها، ولكنها تأخذ إحالتها من سابقها،أو يكون تأويلها غير مخصص Inefinitien interpretation وينقصها مرجع محدد ، وعلى هذا يمكن اعتبار المضمر عائداً [(١)]

وانطلاقا من هذا التصور ؛ تتحدد الخصائص الإحالية للمضمر ، لأنه مركب اسمى ، كسائر المركبات الاسمية ، والمركبات الاسمية على نوعين :

١ - مركبات حرة إحالياً free ٢ - مركبات مربوطة إحالية referentially bound

إن نظرية الربط الإحالى ، التى يقترحها تشومسكى تعتمد على مفهوم العمل فى صياغة المبادئ التى تكونها وهذه المبادئ هى :

أ - كل عائد يجب أن يربط فى مقولته العاملية .government category

ب - كل ضمير يجب أن يكون حراً فى مقولته العاملية .

ج - كل تعبير محيل حر . referntail exppression [(٢)]

يتجلى لنا بعد هذا العرض ، لمفهوم نظرية العامل والربط السياقى ، عند رائدها تشومسكى . أن المركبات الاسمية تكون على نوعين باعتبار العمل :

١ - مركبات معمول فيها . ٢- مركبات غير معمول فيها .

وأن العوامل هى الفعل والحرف بالدرجة الأولى .

كما يتجلى لنا مدى أهمية عنصرى : الأثر والمضمر ، فى تأسيس هذه النظرية، وأن

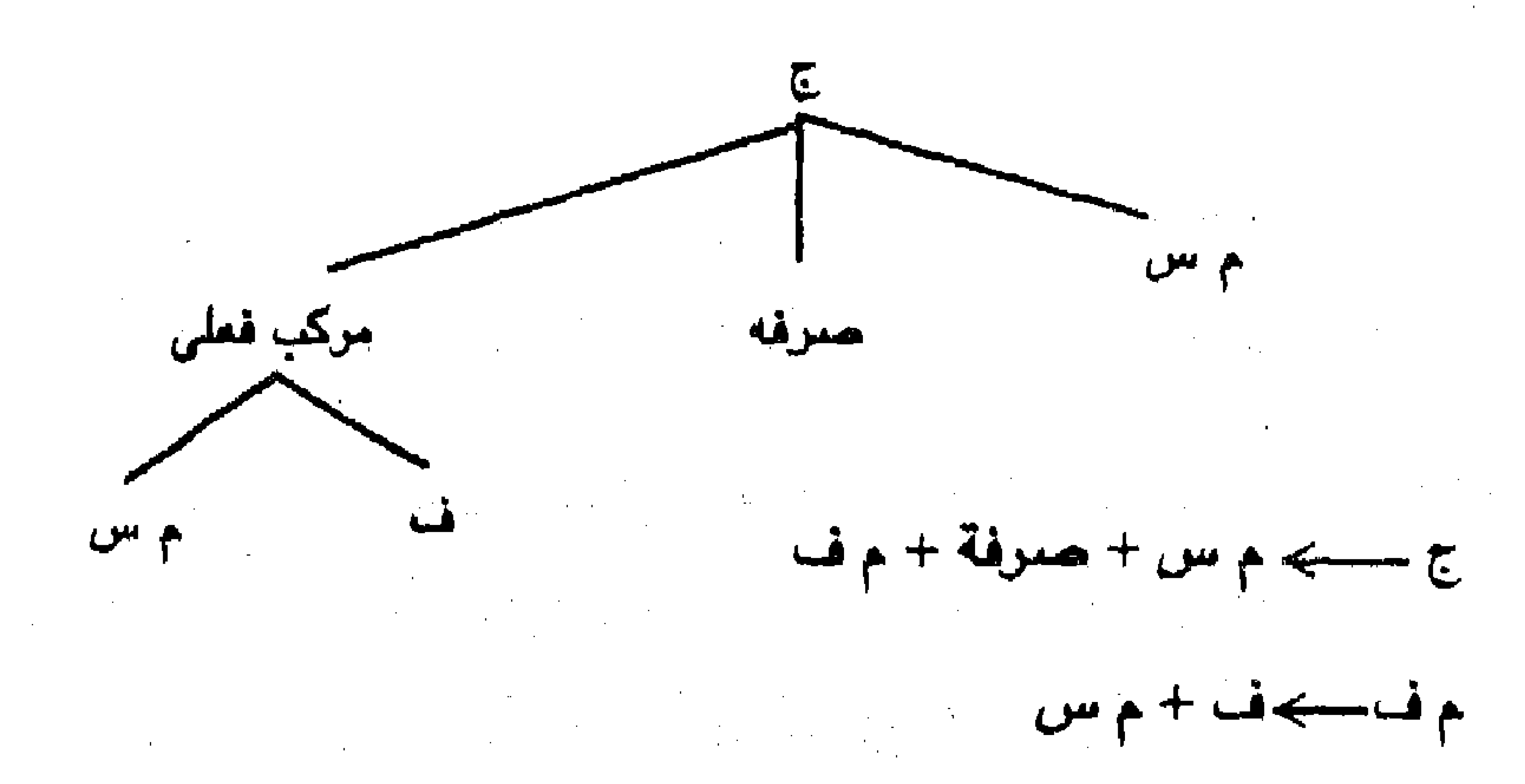
---

(١) يقترح د . عبد القادر الفاسى الفهرى أن يكون مصطلح : مضمر ، ترجمة اللفظ ، " pronominal " ومصطلح ضمير ، ترجمة للفظ : " pronoun "فالضمير بهذا المعنى يشمل الضمير (المنفصل البارز) عند تشومسكى ، ويشتمل الضمير المتصل (cilitic) وكذلك المضمر ، وهو غير بارز .

(٢) انظر : اللسانيات واللغة العربية ١٧٣

تحديد العامل والمعمول وما يصلح أن يكون معمولاً ، ومالا يصلح أن يكون معمولاً . كل هاتيك من الأمور الهامة ؛ التى من شأنها أن تلقى الضوء على التحليل الشجرى للتراكيب النحوية فى بنيتها السطحية ، بعد أن كانت من قبل تستمد قدرتها التوليدية من البنية العميقة .

لعل اعتماد نظرية العامل عند تشومسكى على عنصرى : الأثر والمضمر ، والتفاعل الكائن بينهما ، لعل هذا التفاعل الذى أدركه تشومسكى بين هذين العنصرين ، هو الذى دفعه أن يجعل منها قاعدة كلية ، يفترض فيها أن العامل فى المفعول هو الفعل ، وأن العامل فى الفاعل ، هو ما يسمى : الصرفة والتى تتضمن صفات التطابق والزمن والجهة . وهذا العمل يتم بواسطة افتراض بنية شجرية تولدها القاعدة الآتية : (١)



---

(١) انظر : اللسانيات واللغة العربية ١٨٤ وينبغى أن نعلم بان نظام التركيب فى الجملة العربية يختلف عن القاعدة ؛ التى ذكرها تشومسكى : فى التخطيط الشجرى ، حيث لا تتضمن جمل العربية وجود عاملين ؛ أحدهما يخص الفاعل ، والآخر يخص المفعول ، فالعامل فى تركيب العربية يعمل فى الفاعل والمفعول على السواء . فالفاعل مثلاً ، يقوم بعملية الرفع فى الفاعل والنصب فى المفعول . والفعل الناسخ ، يقوم بالرفع فى المبتدأ والنصب فى الخبر وهكذا ..
والعامل فى العربية إما أن يكون لفظياً ، مثل الفعل والحرف والاداة ، وإما أن يكون معنوياً كالابتداء وقد يكون العامل ظاهراً وقد يكون محذوفاً ، وقد يجوز الحذف وقد يجب ، كما هو وارد فى أبواب المدح والذم والتحذير والاختصاص .
غير أن فكرة العامل ، تأثرت بالمناهج الفلسفية والفقهية ، وبدلاً من نظرة العلماء والنحاة فى أن العامل هو نتاج لعملية التفاعل والتأثر بين عناصر التركيب ، أصبح ينظر إليه على أنه بمنزلة العلة من المعلول ، ولم يعد الأمر مقصوراً على علة واحدة ، وإنما على علل متعددة أوصلها بعضهم إلى المائة ، وقد ظهرت قضايا فلسفية ومنطقية فى النحو العربى ، مثل باب : التنازع ، الذى نتج عن عدم قبول اجتماع عاملين فى معمول واحد عقلياً ! ومن ثم فإن النحاة عندما حدث واجتمع العاملان وتنازعا معمولاً واحداً ، ذكروا للمعمول عاملاً واحداً دون الآخر .

إن فكرة التأثير هذه مع اختلاف الأسس والمنطلقات التى تتسم بها أية لغة عن غيرها من اللغات ، كانت هذه الفكرة ؛ هى الباعث لنظرية العامل فى النحو العربى ... وينبغى أن ندرك أن هذه الفكرة ، كانت مستقرة فى أذهان النحاة العرب ، منذ بدايات التفكير النحوى.

لقد أدرك النحاة العرب قدرة التفاعل والتأثير بين مكونات التركيب النحوى بعضها مع بعض .

ولعلنا نلحظ أن الخليل بن أحمد ، وهو من أوائل النحاة الذين أدركوا فكرة العامل وأولوها الأهمية والاعتبار . فقد جاءته هذه الفكرة – فى أغلب الظن – من ملاحظاته ذلك التفاعل بين الحروف والحركات والكلمات ، مما جعله يطمئن إلى أن هذه الظواهر اللغوية ، سواء أكان منها ما يتصل بالبناء أم ما يتصل بحركات الكلام ، ترجع إلى هذا التأثير الكامن فى طبيعة الحروف والكلمات [١]

والذى لا شك فيه ، أن نظرة الخليل إلى العامل كانت فى ضوء تذوقه الحروف، ومراقبته الكلمات فى ثنايا التأليف ، وملاحظته التفاعلات اللغوية بين الأصوات والكلمات [٢]

لقد كان الخليل وهو يتذوق حروف العربية ، ويحدد مخارجها ومدارجها ، فإنه– كذلك– كان معنياً بمعرفة تآلفها وانسجامها من جهة ، وتنافرها وتباعدها من جهة أخرى . وكان يرى " وهو يرصد نماذج الحروف ، إن لبعضها تأثراً فى بعض، بل تأثيراً فى بناء الكلمة .. ولاحظ أن بعض الحروف أقوى من بعض " وأن للقوى تأثيراً فى الضعيف ، ولذلك كانوا يقدمون القوى إذا اجتمع فى كلمة واحدة [٣]

وكان من نتيجة إدراك هذا التأثير بين الحروف ، كشف اللثام عن الظواهر اللغوية الصوتية المتمثلة فى ظواهر الإدغام والإبدال والإعلال وغيرها من ظواهر القلب والإتباع .

كما أدرك الخليل " أن لبعض الحركات تأثيراً فى بعض .. ومن هنا نفهم حركة

---

(١) الخليل بن أحمد – أعماله ومنهجه ٢٣٩

(٢) الخليل بن أحمد – أعماله ومنهجه ٢٤٧

(٣) الخليل بن أحمد – أعماله ومنهجه ٢٤٠

الإتباع فى الإعراب كما فى قراءة : الحمدِ لله ، بكسر الدال ، وكما فى قولهم : " هذا جحر ضبٍ خربٍ " بكسر الباء فى كلمة : خرب . وبيّن أن تآلف الحركات فى العربية ، إنما يرجع إلى ما يطلق عليه الانسجام الصوتى بين الحركات : فالعربى لا يألف توالى أربع حركات فى كلمة واحدة ، إلا أن يكون فى الكلمة حذف . كما أدرك الخليل - أيضاً - وجود التفاعل فى الكلمات، حين يتآلف بعضها مع بعض " ولم يكن ليدرس الحروف إلا على أنها مقدمة طبيعية لدراسة الكلمات أو لدراسة تأليف الكلام منها حيث نجده يتتبع الكلمات ، راصداً استعمالاتها المختلفة ، ومراقباً ما يطرأ على هذه الكلمات من تغيير ، حيث أدرك أن بعض الكلمات يلزم حالة واحدة ، وتلك الكلمات هى المبنية ، وبعضها الآخر يتغير بتغير التراكيب ، لإعرابها عن المعاني المختلفة التى تتعرض لها فى التأليف .

لقد وصل الخليل من خلال إدراكاته للأصوات والحروف والكلمات ، على النحو الذى أسلفنا ، وصل إلى دراسة جديدة ، هى الهدف من هذا كله . إنها تتعلق بأسباب تغيير أواخر الكلمات بتغيير موقعها فى التراكيب ، ومما لا شك فيه أن أساس هذه الدراسة ، هو الكشف عن المؤثرات المختلفة ؛ التى تؤدى إلى مثل هذا التغيير ، هذه المؤثرات ، هى العوامل.

ومن هنا ، فإننا نؤكد أن فكرة االعاكمل فى النحو العربى ، قد نشأت نشأة لغوية حقاً ابتداء من التأثير والتفاعل بين الأصوات والحروف ، وانتهاء بالمؤثرات الفاعلة فى تغيير أواخر الكلمات داخل التراكيب المختلفة .

ولسنا نحتاج إلى جهد كبير ، لكى نؤكد أن النحاة العرب ، قد أدركوا فكرة العامل ، وأن أبواب النحو العربى كله ، قائمة على هذا الفكرة ، وأنها نشأت كما ذكرنا نشأة لغوية ، من خلال عنصر التفاعل والتأثير ، وأنها بذلك ، تكون قد استمدت أصولها من ذات المعين الذى استمدت منه النظرية التوليدية التحويلية نظرية " العامل والربط السياقى " وأنهما قدكرعا من معين واحد !

وليس من شك أن نظرية العامل فى النحو النحو العربى ، قد انحرفت عن مفهومها ،

الذى رسمه نحاتنا الأوائل ، ذلك المفهوم المبنى على مبدأ التفاعل والتأثير بين العناصر اللغوية المختلفة ، التى تهم فى بناء الجملة ، بعدما أقحمت الدراسات الفلسفية والمنطقية والفقهية على مصطلحات الدراسات النحوية !

وبعد .. فإن تشومسكى وهو يبذل قصارى جهده من أجل بناء نظرية لغوية متماسكة قد أيقن بعد العديد من الإضافات والتعديلات والتحسينات التى أجراها على نظريته منذ ظهورها فى كتابه التراكيب النحوية سنة ١٩٥٦ م ، نقول بأنه أيقن أن : نظرية العامل والربط السياقى ، تمثل ذروة ما توصلت إليه النظرية من اكتمال ، بحيث أصبحت القواعد التوليدية قادرة على إعطاء التفسير الكامل والتحليل اللغوى الشامل للتراكيب النحوية ، فى بنيتها السطحية دون لجوء إلى قواعد التحويل فى الأبنية العميقة .

وإذا كانت هذه النظرية ، وهى تمثل الكفاءة التوليدية المثلى التى توصلت إليها النظرية التوليدية التحويلية ، بعد جهد وعمل ومثابرة امتد إلى ما يقرب من ربع قرن ، فجاءت نظرية العامل فى نهاية المطاف لتكلل هذا الجهد وتلك المثابرة ، فإن الخليل بن أحمد ، قد أدرك أهمية العامل وقدرته قبل ألف عام أو يزيد ، وأنه أدرك أهميته منذ البداية فى دراسته للأصوات ، ومن ثم فإن تشومسكى وإن كان قد انتهى بنظرية العامل ، فإن الخليل ، قد ابتدأ بها !

لقد أخلص علماؤنا الأفذاذ ، علماؤنا العرب الأوائل فى دراستهم للغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، فبذلوا الجهود المحمودة للكشف عن خصائص تلك اللغة الشريفة بكل ماأوتوا من ثاقب نظر وعمق إدراك .

فجزاهم الله عن جهدهم خير الجزاء .

والله تعالى ولى التوفيق ،

إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير

د . **حسام البهنساوى**

فى يوم الخميس ٣٠ من ذى القعدة ١٤١٢ هـ

الموافق ٢٢من إبريل ١٩٩٢م

المراجع العربية

١ - الأصول فى النحو، لابن السراج - تحقيق د.عبد الحسين الفتلى — بيروت ١٩٨٨م

٢ - أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د . نايف خرما - عالم المعرفة - العدد ٩ — الكويت ١٩٧٨م

٣ - اكتساب اللغة ، لمارك ريشل - ترجمة كمال بكداش — بيروت ١٩٨٤م

٤ - الألسنية - علم اللغة العام - المبادئ والأعلام د.ميشال زكريا - ط٢ — بيروت ١٩٨٣م

٥ - البحث اللغوى عند العرب ، د. أحمد مختار عمر . — القاهرة ١٩٧١ م

٦ - بحوث ألسنية عربية ، د. ميشال زكريا — بيروت ١٩٩٢ م

٧ -البنيوية ، جان بياجيه - ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبرى — بيروت ١٩٨٢م

٨- التطور النحوى للغة العربية ، للمستشرق براجشتراسر- أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب - — القاهرة١٩٨٢م

٩- تعليم النحو بين النظرية والتطبيق ، د . تمام حسان - مجلة المناهل - العدد ٧ . — المغرب١٩٦٧م

١٠- الجمل فى النحو ، المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدى - تحقيق فخر الدين قباوة — بيروت١٩٨٥م

١١- الخصائص ، لابن جنى - تحقيق محمد على النجار . — القاهرة١٩٥٢-١٩٥٦م

١٢- الخليل بن أحمد الفراهيدى ، أعماله ومناهجه ، د . مهدى المخزومى - ط ٢ — بيروت١٩٨٦م

١٣- دراسات فى علم اللغة العام - القسم الثانى - د. كمال بشر — القاهرة١٩٦٩م

١٤- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمود أحمد شاكر - القاهرة١٩٨٤م

١٥- سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي - القاهرة١٩٥٣م

١٦- العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب - يوهان فك - ترجمة د . رمضان عبد التواب القاهرة١٩٨٠م

١٧- علم اللغة ، نشأته وتطوره ، د . محمود جاد الرب - القاهرة١٩٨٥م

١٨- الكتاب ، سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون القاهرة١٩٦٦-١٩٧٧م

١٩ - الكتاب ، سيبويه بولاق١٣١٦-١٣١٧هـ

٢٠- اللسان والإنسان ، د.حسن ظاظا الإسكندرية ١٩٧١م

٢١- اللسانيات - مجلة اللسان البشرى - العدد ٦ الجزائر١٩٨٢م

٢٢- اللسانيات واللغة العربية ، نماذج تركيبية ودلالية - د. عبد القادر الفاسي الفهرى المغرب١٩٨٥م

٢٣- اللغة العربية معناها ومبناها ، د . تمام حسان القاهرة١٩٧٩م

٢٤- اللهجات العربية الغربية القديمة ، لرابين - ترجمة د . عبد الرحمن أيوب الكويت١٩٨٦م

٢٥- مايجوز للشاعر في الضرورة ، للقزاز القزويني - تحقيق د. رمضان عبد التواب، د. صلاح الدين الهادى القاهرة١٩٩٢م

٢٦- مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة ، د.ميشال زكريا ط ٢ بيروت١٩٨٥م

٢٧- محاضرات في علم اللغة العام ، دى سوسير - ترجمة أحمد نعيم الكراعين الإسكندرية١٩٨٥

٢٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين القاهرة ١٩٥٨م

٢٩- مظاهر النظرية النحوية ، لنعوم تشومسكى - ترجمة مرتضى جواد باقر بغداد ١٩٨٣م

٣٠- المعرفة اللغوية ، لنعوم تشومسكى - ترجمة د. محمد فتيح — القاهرة ١٩٩٣م

٣١- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصرى - تحقيق محى الدين عبد الحميد — القاهرة بدون تاريخ

٣٢- مفاتيح الألسنية ، لجورج مونان - عربه وذيله بمعجم عربى فرنسى الطيب البكوش — تونس ١٩٨١م

٣٣- مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د .على عبد الواحد وافى . ط ٣ . — القاهرة ١٩٧٩م

٣٤- الملكة اللسانية فى مقدمة ابن خلدون ، د .ميشال زكريا — بيروت ١٩٩٢م

٣٥- النحو العربى والدرس الحديث ، د. عبده الراجحى — الإسكندرية ١٩٧٧م

٣٦- النحو بين عبد القاهر وتشومسكى ، د. محمد عبد المطلب - مجلة فصول م٥ عدد ١ — القاهرة ١٩٨٤م

٣٧- نظرية تشومسكى اللغوية . لجون ليونز - ترجمة د .حلمى خليل — الإسكندرية ١٩٨٥م

٣٨- نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث ، د. مازن الوعر — بيروت ١٩٨٠م

فهرست المراجع الأفرنجية

1- ***Bloch and triger*** : *out line of linguistics analysis, baltimore linguisties society of america.*

2- ***L.Bloomfield*** : *language, london, allen uniwn, 1935.*

3- ***N.Chomsky*** : *cartesian linguisties , new yourk, 1966.*

4- ***N.Chomsky*** : *language and mind, new yourk, 1968, francaise ed seuil paris, 1970.*

5- ***N.Chomsky*** : *syntactic structure, 1957, the hague mouton trad* fran-caise, ed sueil 1969.

6- ***N.chomsky*** : *the formal nature of language , appendix , 1967.*

7- ***P. crystal*** : *linguistics.*

8- ***R.A.halle*** : *An essey of language, philadelphia and new york chilton books, 1968*

9- ***A. Martine*** : *Elements de linguistique générale, paris, armand collin, 1960.*

10- ***A.Meillet*** : *linguistique historque , khinesreck, vol , 111, 1952.*

11- ***E.Sapir*** : *language , new yourk, 1921.*

